شاكر الأنباري

أموات في متحف الأحياء

رواية

سطور
للنشر و التوزيع

أموات في
متحف الأحياء

شاكر الأنباري

أموات في متحف الأحياء

روايـة



◉ - عنوان الكتاب: أموات في متحف الأحياء

◉ - المؤلف: شاكر الأنباري

◉ - الطبعة الأولى ٢٠٢٤

ISBN: 978-9922-628-95-0



SUMER
Printing, Publishing&distribution



دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
07700492567 - 07711002790
Email: bal_alame@yahoo.com

◉ - لوحة الغلاف: الرسام العراقي طالب حسين

أوروك

إلى أين تسعى يا جلجامش
إن الحياة التي تبغي لن تجد
حينما خلقت الآلهة العظام البشر
قدّرت الموت على البشرية
واستأثرت هي بالحياة
أما أنت يا جلجامش فليكن كرشك مليئا على الدوام
وكن فرحا مبتهجا نهار مساء
وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك
وارقص والعب مساء نهار
واجعل ثيابك نظيفة زاهية
واغسل رأسك واستحم في الماء
ودلّل الصغير الذي يمسك بيدك
وافرح الزوجة التي بين أحضانك
وهذا هو نصيب البشرية
ملحمة جلجامش

نساء في مرسم

احتللت مقعدي جنب نافذة القطار، ورأيتهم متجمّعين على الرصيف الضيق. جاءوا كلهم لتوديعي، صديقي مرتضى، وعائلة سامي: نبال ولميس وهانيبال ونور وميّار، وخلفهم لمحت شبحا غير مرئي لنصير بوجهه الصارم، وابتسامته الخجولة، ونظارته التي كانت جزءا من صورته. وضعتهم جميعا تحت ذلك اللقب الذي أنار في رأسي مثل عمود نجمي في ليل مظلم: "غرباء مدينة لوفان" ، سيعيشون في داخلي حتى النهاية مثل أغنية حزينة. وخلال الرحلة إلى مطار بروكسل، وهي لا تستغرق أكثر من نصف ساعة، استعدت الأيام الغريبة التي عشتها في المدينة ووجدتها غنية جدا بأحداثها، وقصصها، برغم أنها لم تستغرق سوى أسبوع.

استعدت ما عشته في هذه المدينة منذ اليوم الأول، اليوم الذي قادني إلى لقاء تلك العائلة مصادفة، وكان مشمسا يضيء المدينة المدورة العتيقة التي قطنها صديقي مرتضى منذ أكثر من ثلاثين سنة. عند وصولي استقبلني

مرتضى في المحطة نفسها، محطة لوفان، تسللت الشيخوخة إلى وجهه بشكل واضح، الغضون حول الفم، الزوائد المتدلية تحت حنكه، والشعر الأشيب الكث، وما زال يضع نظارته المميزة المربوطة بخيط طويل أسود يلتف حول رقبته، وتلك النظرة الطفولية التي اشتهر بها. ومضينا مشيا إلى بيته. وجدته قد أعد مائدة عامرة بالطعام في مرسمه، تنتصب وسطها قنينتا نبيذ فرنسي فاخر، وسهرنا الليلة نشرب الخمرة ونتحدث عن أصدقائنا الغائبين، وخاصة صديقنا "نصير" الذي اغتيل في بغداد قبل أكثر من عشر سنوات.

قادني إلى لوحاته المعلقة في الصالون، ولاحظت أنه لم يبتعد كثيرا عن أسلوبه السابق. المرأة وأحوالها وتجلياتها، وتلك الألوان الفاقعة الجريئة المتوهجة في ضوء الصالون. لوحة واحدة توقفت عندها. قلت له إنها ليست لك. هذا عمل من نمط آخر لا ينتمي إلى أسلوبك في الرسم. وكانت لوحة مرعبة بعض الشيء. لوحة "بوزايدون" ، إله البحر عند الإغريق، وكان حاملا لحربة ثلاثية الشعب ويفتح فمه بغضب كي يبتلع المهاجرين القادمين من أفريقيا وآسيا. قال مرتضى وعيناه تعكسان أشعة لاصفة من الحزن والغضب: هي تمثل مأساة السوريين الذين ركبوا البحر للوصول إلى أوروبا، أنت تعرف الكم الهائل منهم الذين فقدوا حياتهم ثمنا لتلك المغامرة. رسمتها، لا بسبب ألوانها

أو تفردها، بل بسبب الفكرة المباشرة الجارحة المعبرة عما يجري في عالمنا من قسوة ومآس. أعتبرها صرخة احتجاج على تبلد ضميرنا العام بمواجهة المعاناة البشرية.

ودار بيننا حوار طويل عن تلك اللوحة وعما يجري في سوريا. التقيت مرتضى في دمشق حين أقام معرضه في "صالة الأتاسي"، ولذلك كنت على اطلاع جيد بأسلوبه في الرسم. وكنت بشوق لرؤية تطوره الفني خلال السنوات الأخيرة. تذكرنا اليوم الأخير قبل سفره عائدا إلى بلجيكا وقضيناه في حمّام قديم يقع في منطقة الشيخ محي الدين المنزوية تحت جبل قاسيون، وحين أنهينا حمامنا توجهنا إلى مطعم ومشرب المحاربين القدماء المطل على حديقة السبكي، وكان بانتظارنا مجموعة من أصدقائه الفنانين والكتاب. احتفلنا جميعا بوداع مرتضى الذي سيغادر في الصباح التالي.

من الصعب اختصار معرفة عمرها سنوات بليلة واحدة، لذا نمنا متأخرين، بعد ثمل جنوني، وحوارات صريحة تخلو من مسار محدد، ونهضت أنا باكرا كعادتي ما إن سمعت تغريد طيور الصباح منطلقا من حديقة الكنيسة المواجهة للشباك، وقد رسم لي مرتضى ليلة البارحة خريطة واضحة لهذه المدينة العجيبة. تركته في مشغله نائما، واتجهت إلى السوق، لاكتشاف مكان لم أره سابقا في حياتي. مكان تزوره أول مرة ويدفعك الفضول لمعرفته، عليك أن تتجول

فيه وحيدا من دون دليل. هوية المدن طالما سحرتني في سنواتي الماضية، وطالما شبّهت المدن بالنساء، فلكل مدينة هوية، ونكهة، ورائحة. كل امرأة مغامرة بلا شك، وكل مدينة سر له طبقات سحرية أو جارحة، وظلال ملونة أو معتمة، ومسارب لا تقود إلى مكان.

اجتزت الجسر الضيق، بمشاعر متفائلة، يقظة، وألقيت نظرة إلى القوارب العتيقة التي تحوّل بعضها إلى مطاعم ونواد للصغار، وكانت مياه القناة راكدة بعض الشيء ذات زرقة كثيفة، وكنت أفكر بالقيام بجولة حرة، فأنا أعشق الضياع في المدن. وكون المدينة مدورة، لم أجد أي خوف في داخلي من الضياع في شوارعها. بالنهاية فالأزقة والشوارع تقود دائما إلى المركز، ومعالمها واضحة من بعيد. التلال المشجرة المحيطة بالمدينة، ومبنى الاتصالات العالي، ونصب الشهداء تطير فوقه ثلاث بجعات بيض من دون أن تحرك الأجنحة، وبنايات معمل البيرة الواقعة إلى شمالي، وخلفها الجسر المعلق الذي يمر عليه القطار، والكنائس السامقة وهي تتوزع مساحة المدينة لتصبح علامات دالة لأي غريب مثلي. أنا الغريب المحتفي بالحياة، بالسماء الزرقاء، والشمس المشرقة المبهجة، والمغامرة. فكل مدينة تجربة تستحق أن تدوّن في الذاكرة عبر اللمس والشم والبصر والسمع. المدينة في النهاية ناس مختلفون في الهيئات والطباع، يزيلون شيئا من وحشة الأيام.

كان الوقت صيفا في مدينة "لوفان" ، وأنا بمزاج رائق، والألوان تنسكب في المياه الراكدة، والغابات المحيطة ببيت "مرتضى" ، والشوارع الملتفة في البعد الناء، والواجهات الأنيقة، والشجر الراكد تحت الشمس، وكلها تكاد تشبه لوحات "مرتضى" المعلقة في مرسمه. كل ما تقع عليه عيناي يجلب البهجة. رأيت نهرا صغيرا ينبع من مكان ما ويتوغل في جسد المدينة، أو يختفي تحتها ربما، وتخيلت أسماكه الصغيرة تغور في العالم السفلي، فالتقطت بتلفوني من نوع "نوكيا" صورا للبيوت العتيقة القائمة على الشاطئ، وحشائش الضفاف، والزقاق المعبّد بالصخور السود، ويستطيع المرء أن يخمّن أنها عبرت قرونا عدة.

نعم، في ذلك النهار العجيب صورت البناية العتيقة للمستشفى وهي في طريقها للزوال، وشاهدت الجرافات تلتهمها قطعة بعد قطعة. كما صورت مدرسة كنسية تشبه الخان، نبتت الحشائش في ممراتها وكأنها علامة على موت لما هو عتيق وولادة ما هو جديد وشاب. وأنا أفعل ذلك فكرت بعزلة مرتضى بين نسائه المرسومات ب" الأكليرك" وهن يحدقن إليه بإغراء، وكأنهن يباركن وفاءه للفن بعيدا عن هذه الحياة الشاقة. كنت التقيت بمرتضى في دمشق، ذات نهار صيفي ساخن، وقد جاء ليقيم معرضا لرسوماته في صالة الأتاسي، وكنت أعيش آنئذ في دمشق. سمعت باسمه منذ فترة طويلة، ورأيت لوحات له منشورة في

الصحف والمجلات، وأعرف أنه يقيم في بلد أوروبي. ثم التقيته مصادفة في مقهى "الروضة" . أول ما وقعت عليه عيناي، وجذب انتباهي بقوة، قميصه الأصفر الملون بورود فاقعة الحمرة، وشعره المنكوش الكث، ووجهه الحامل لتعابير طفولية، مما منحه هيئة فنان منذ النظرة الأولى.

كان الفصل حينذاك صيفا، كما هو الآن. والطاولة التي يجلس عليها مع أصدقائه مركونة إلى جدار المقهى. وتحدثنا سوية عن الفن، والغربة، وما يجري في الوطن، ومن بين من حضر مجلسنا الشاعر عبد الحميد القادم من الجزيرة السورية منذ عشرات السنين. عدا عن هيئة الفنان الواضحة، أحسست بأنه يعشق الشهرة ويسعى إليها، ثم أكملنا الجلسة في بيت عبد الحميد القريب من المقهى. في تلك الليلة مضى مرتضى يحدثنا عن تأثير الاستقرار على عمله، والعزلة التي تجبره على تكريس وقته للفن. ولمدة اسبوعين، وهي الفترة التي قضاها في دمشق، لم نفترق تقريبا. حضرنا افتتاح معرضه، وقرأنا سوية المقالات التي تناولت أسلوبه بالرسم، وألوانه الوهاجة، ونساءه. زرنا سوق الحميدية، والجامع الأموي، وسهرنا في باب توما، وتجولنا في حارات الشام القديمة، وكررنا الجلسة في بيت الشاعر عبد الحميد. ذكر لنا أنه يفكر بشراء بيت في دمشق يحوله إلى مرسم، كون العاصمة وايقاعاتها الثقافية والفنية أعجبته كثيرا، وكان ذلك قبل أن تحصل الكارثة السورية

بسنوات. ما ترك أثرا عميقا في نفسي هو تواضع مرتضى، وبساطته، ووفاؤه للرسم والألوان، وهوسه بالنساء. كان مهووسا بكل ما هو محلي، لذلك كان يعشق أكلة الكباب، والعرق الريان، وعنب الغوطة، والبروكار الدمشقي بألوانه الساحرة. يستيقظ بعض الأحيان فجرا ليأخذ جولة في أسواق المدينة للاطلاع على حياتها الصباحية، فيزور الحريقة، والميدان، وسوق الجمعة في الشيخ محي الدين، وسوق التنابلة القريب من شارع الحمرا. يقول إنه يختزن ألوان البضاعة، والفواكه، والأعشاب، والورود، ووجوه النساء، والمقرنصات الدمشقية، والمشربيات، ومزججات الجامع الأموي. اللوحة في النهاية مزيج من الألوان. استأجر شقة في الطابق الأول بمنطقة ركن الدين، قريبا من جامع صلاح الدين، اتخذناها مكانا للقاء. حضرت معه أمسية راقصة في المركز الثقافي الروسي لفرقة روسية، واحتسينا الخمرة على سفح قاسيون حيث قضينا ليلة رائعة نتأمل مدينة دمشق ومعالمها في الليل. وحاول مرة إقامة علاقة مع فتاة دمشقية لكنه لم يمض بالشوط إلى نهايته، إذ سافر بعد أسبوعين وترك لي رقم تلفونها، وسيورثني إياها كما قال، فهي فتاة لطيفة ومنفتحة في العلاقات الجسدية.

بعد سنتين من ذلك اللقاء، سافرت أنا إلى العراق وعشت عشر سنوات ثقيلة وخطرة، وكانت سنوات تشبه غيبة الوعي، فلم أكن أفهم ما يجري حولي، لذلك قررت

العودة إلى مستقري السابق في كوبنهاغن لأعيش في عزلة شبه كاملة. سهّل عليّ الفيسبوك الاتصال بأصدقائي القدامى ومنهم مرتضى، الذي دعاني لزيارته في عشّه الفني، على أطراف مدينة لوفان البلجيكية. لقد زايله هاجس الشهرة تماما، ولم تعد الحياة خارج اللوحة تعني الكثير له. وهذا سر من الأسرار ينبغي لي التفكير فيه بعمق، وأظن أن له علاقة بتقدم العمر. تركته مشغولا في أصباغه وفرشه وتأملاته وسط صالونه الواسع الذي حوّله إلى مشغل ومعرض للصور، وقررت اكتشاف المدينة بنفسي. وهي عادة آمنت بضرورتها كلما زرت مكانا لم أره سابقا.

مشيت دونما خرائط أكيدة تدلني أو هدف محدد يجذبني. ولفت انتباهي ضجيج المقاهي المكتظة، والمارة المتسكعين في الساحات دون هدف، وألوان الضوء الباهر وهو يتقافز من إفريز إلى أيقونة، ثم إلى زخرف ذهبي في قبّة لبناية عالية، وينعكس على وجوه المارة والجالسين في المقاهي. لوفان في الصيف مدينة سياحية بامتياز. وبعد جولة في الأزقة، والساحات، والشوارع، دون هدف سوى مراقبة كل ذلك الجمال الجالب سكينة وهدوءا فريدين إلى روحي، قررت الجلوس قرب تمثال واجهني فجأة وسط فسحة صغيرة، يطل على ساحة كنيسة فخمة. لم يصرفني ضجيج المكان عن تأمل التمثال المنتصب أمامي وسط بحيرة صغيرة ممتلئة بفقاقيع الهواء وبعض القش والعيدان،

حيث جلست للاستراحة بعد أن وجدت نفسي في المركز. في القلب. والتلال البعيدة بالكاد أراها من بين البنايات العالية. بعد هذا العمر ما تحبه نفسي هو الجلوس ومراقبة البشر، فكل فرد فيهم قصة لا تنتهي. أجل، وقتي ضيق، وينبغي عليّ أن أحشوه بالمعرفة والتأمل والحكايات، كما كنت أفعل دائما. تجمّع البشر حول التمثال مفتونين. وجدت التمثال ساحرا أنا الآخر، وفكرت أن الحياة دائما ما تفاجئ المرء بأشياء جديدة، ومثيرة، وموحية، مهما امتلك من الخبرة والتجربة.

تمثال صغير لرجل ليس واضح المعالم، يقف على منصتين متباينتي الارتفاع، يمسك بيده اليمنى كأسا ضخمة يصب منها الماء في جمجمته المفتوحة، بينما تمسك يده اليسرى بكتاب يطالعه بتركيز شديد. الرسالة واضحة بلا شك، فكلما قرأ الإنسان مزيدا من الكتب اتسعت معرفته وزادت حكمته. ورأيت خلف المرمر والبرونز والمياه السائلة، وقحف ذلك الرجل الصغير، الفكرة التي لمعت في رأس الفنان ذات سنة بعيدة. استشففت أنه قضى ليلته أرقا، متوفزا، هائجا يستعصي عليه النوم ليمسك في النهاية بتجسيدات فكرته المسبوكة من معدن صلب ومواد سائلة. وحده الفنان من يحوّل الفكرة إلى تمثال شاخص أمام البصر. فكّر طويلا بمسار البشرية المتعرج وهي ترتقى من الجهل إلى المعرفة، لكن ماذا عن الحصول على الحكمة

والمعرفة عن طريق آخر؟ ليس بالضرورة أن تتسع المعرفة بتجربة الشخص ذاته، ربما تأتي عبر حكايات أشخاص آخرين، سمّيتها مع نفسي "الخبرات المضافة" ، وهي لن تنتهي يوما ما دام الانسان حيا.

كنت أفكر بهذه المفارقة وأنا أتابع صعود الماء من الحوض الضحل متدفقا من الكأس، منصبّا في رأس هذا الشخص "النكرة" الذي يمثّل تاريخ البشرية جميعا. وحين سمعت لغة تشذ عن اللغة الشائعة في مدينة لوفان، لغة وجدتها بلحظة خاطفة غريبة عليّ، وأليفة في الوقت ذاته، أدرت عيني من التمثال نحو الجهة التي قدمت منها تلك اللغة. وقعت عيناي على عائلة تجلس قريبا منّي، تتكون من رجل كهل شائب الشعر بعض الشيء وامرأتين شابتين يحيط بهم صبيّان مراهقان وطفل ناعم الملامح، سبط الشعر، يضع نظارة سميكة، لم يبلغ العاشرة كما قدّرت عمره. كانوا يتكلمون العربية بلهجة سورية واضحة. وجدت فيهم "شيئا" ما يجذبني إليهم عدا اللغة، شيئا غير مرئي. فسّرته سريعا بتلك الغيمة الشفيفة من الحزن، والقلق، والدهشة، تتلوى فوق رؤوسهم. غيمة تميّزهم عن محيط الساحة الواسعة التي تطل عليها بنايات عتيقة، وواجهات مزخرفة، وسماء زرقاء بدأت شمسها تنسحب إلى الغرب، مخلفة ظلالا متراقصة على زخارف الواجهات العملاقة للأبنية المشرفة على الساحة بتمثالها، ومقاهيها،

وطيورها، وروائح أطعمتها، وضوضائها. مرأى تلك العائلة، ولسبب لا أدركه، شتت انتباهي وتأملي بتمثال المعرفة، فبدأت أراقبهم خلسة، وأتسمع إلى حديثهم المتقطع غير المتجه إلى بؤرة محددة. بعثوا في صدري فجأة حنينا طاغيا إلى دمشق. إلى ساحة المرجة، وسوق الكتب تحت جسر الرئيس، ومطعم القنديل، ومقاهي الربوة، وأشجار حديقة تشرين في ربيع بعيد عشته ذات غروب. شاهدت في عين الخيال جثث المهاجرين على شواطئ أوروبا، وجزرها، ووجه الإله بوزايدون الغاضب، والبراميل المتفجرة فوق المدن، وكل شيء. يصيحون على الأولاد أن لا يبتعدوا عن المكان، أو يشيرون إلى الجالسين في المقهى أمامهم، أو إلى الأبنية الضخمة التي تميّز مدينة عتيقة مثل "لوفان" . غرباء يحيط بهم ارتباك واضح وقلق، مثل أي غريب وجد نفسه في غير مكانه. ومن خلال تجربتي فالغرباء عادة ما يفتقدون للثقة بالنفس، والتماسك الداخلي حتى وإن حاولوا الظهور عكس ذلك.

هناك شبه واضح بين المرأتين، السمار ذاته، واستدارة الوجه الرشيقة، والعيون السود، والشعر الفاحم، وتساءلت مع نفسي هل يمكن أن تكونا أختين، وهل يمكن أن يكون الرجل الكهل والدهما؟ لكن ماذا عن الأطفال؟ الكبيران بالعمر نفسه تقريبا لكنهما لا يتشابهان، هل يمكن أن يكونا حفيدي الرجل؟ ما هي الحكاية خلف مجيئهم إلى هذا البلد

الناء؟ ألا تختبئ خلف كل فرد حكاية ما؟ شيء له سحر غير مفهوم يجذبني أكثر إلى العائلة، قد يكون الفضول، وقد يكون ذلك الحزن المستولي على وجوههم، وربما تلك القرابة في اللغة هي ما يجذبني إليهم وسط هذا المحيط الغريب. المعرفة لا تأتي من الكتب فقط، قلت لنفسي ناظرا للمرة الأخيرة إلى التمثال. نهضت مقتربا من العائلة، وأثناء توجهي نحوهم وضعت سيجارة في فمي وتحججت بطلب قداحة. الحيلة الشبابية ذاتها. صرت مركزا لنظراتهم المستطلعة لهنيهة خاطفة، ثم أخرجت الأخت الكبرى قدّاحة من حقيبتها النسائية وناولتني إياها. وكان ذلك هو البداية، ولكل قصة بداية، فسرعان ما سألني الرجل بابتسامة ودودة يستشف منها أنه يرغب في مواصلة الحديث معي:

- رأيناك مغمورا تماما في تأمل التمثال، حسبناك سائحا إيطاليا أو يونانيا. هذه المدينة تعج بالسائحين واللاجئين. هذا التمثال يبعث على الدهشة، والحقيقة أننا لم نفهم كثيرا علاقة الماء المنصب في الرأس مع الكتاب الذي يقرأ فيه الرجل، رغم أننا رأينا التمثال عشرات المرات.
- سهل تخمين ذلك، قلت له بابتسامة المثقف الواثق من خزينه المعرفي، فالماء المتدفق في رأس الرجل هو الكلمات، والجمل، والأفكار

المحمولـة عليهـا. وكلـما تواصـل التدفـق اتسـع الـرأس، وهـذا الاتسـاع لا يمكـن إيقافـه، لأن المعرفـة كلـما ازدادت تولـدت الأسـئلة. أمـا الكتـاب فيرمـز إلى الخبرة البشريـة التـي تراكمـت منـذ أن تطـور الحيـوان إلى إنسـان. كانـت تلـك الخـبرة تكتـب عـلى العظـام، وألـواح الطـين، وورق الـبردي، والجلـود، والصخـور، حتـى وصلـت إلى الكتـاب الورقـي. ثـم في أيامنـا الحديثة انتهـى بنـا المطـاف إلى الانترنيـت، والكتـاب الالكـتروني. الرجـل الواقـف وسـط المـاء هـو رمـز للبشريـة منـذ أن وعـت ذاتهـا. تمثـال جميـل في رأيي.

- يبـدو أنـك كاتـب أو صحـافي أو فنـان. رد عـليّ بعينين متسائلتين، ممتلئتين بالفضول.
- كاتـب قصـص وروايـات، أفتـش عـن الحكايـات، توصلـت مـن خـلال تأمـلي للتمثـال أن المعرفـة لا تؤخـذ مـن الكتـب فقـط، بـل يمكـن الحصـول عليهـا عـن طريـق التجربـة، وسـماع حكايـات النـاس.
- هل تقيم في لوفان؟
- كلا، جئـت إليهـا زائـرا، لـديّ صديـق رسـام

يقطن خلف التلال، وهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها لوفان، وبدأت جولتي للتعرف على معالمها.

- جئنا أيضا نتجول في المدينة، ولدينا، نحن السوريين، كثير من الحكايات، هل ترغب في مرافقتنا؟

التقطت أكثر من صورة للتمثال، والساحة، وواجهات الأبنية المحيطة، والمقاهي الغاصة بالزبائن، الأمر الذي اعتدت عليه ما أن وطئت قدماي أرض هذه المدينة. أصبحت الصور ذاكرة لبني البشر، وتأثيرها بعد الثورة العلمية والانترنيت أشد من الكتب على الذهن، خاصة للناس العاديين. تركنا التمثال وحيدا، مجللا بالماء، ينثر على المارة والسواح رموز تفاصيله، واتجهنا إلى عمق الساحة. هناك أشخاص تلتقيهم فجأة ولكنك تشعر بوجود تاريخ مشترك معهم، تحس لتعابير وجوههم ألفة، ولأفكارهم ماض مشترك معك، كما لو أنك رأيتهم سابقا في مكان ما. وهذا ما أحسست به وأنا أتطلع في وجوههم، وتعابيرهم القلقة التي تدفع المرء إلى التعاطف معهم، والقرب منهم. وكان السنونو الصيفي يرقص رقصته المعتادة، المرحة، فوق الرؤوس.

اسم الرجل سامي، وينادونه سام، وهو عازف غيتار. استشففت مهنته من خلال أصابعه النحيلة الناعمة.

شعره الطويل منسدل على ظهره، يختلط فيه البياض بالسواد. حركاته سريعة شبيهة بحركات الأطفال. لا يفتأ يدندن بالأغاني خلال مسيرنا في الساحة. أولى درجات المعرفة هي المراقبة. كنت خلال حياتي الطويلة مفتونا بمراقبة البشر. وكنت أرى سامي بحدسي الحاد يعزف على أوتار الهواء برشاقة، وجذل، وكأنه لا يرغب في أن يكون سوى عازف غيتار في هذه الحياة. على حجارة عتيقة عمرها مئات السنين سرنا، وكانت الساحة محاطة بأبنية تنتمي إلى العصور السحيقة، بطرزها الباروكية، وأبراجها الممتدة في الفضاء، وبدت عليها أشعة شمس تنسحب ببطء تنبئ أنها في طريقها إلى الغياب. عرفت أن المرأة الصغرى هي زوجة سام، والثانية أختها الكبرى، والمراهق الأحمر الشعر ابنها، أما المراهق الثاني والطفل فهما ابنا سام. كنت على خطأ إذن، فهما ليستا ابنتيه، وشعرت بالراحة لهذه المعلومة، فقد أوشكت على سؤاله عن ذلك حينما كنا قرب التمثال. ما جذب انتباهي أثناء المسير هي الأخت الكبرى. كانت تحمل وجها قلقا، تستعر تحت بشرته انفعالات متضاربة. تتلفت حولها بين خطوة وأخرى، ولم تفارق السيجارة يدها، ثم انتبهت إلى أنها تشهق الدخان بعمق، يتلبث الدخان لحظات في صدرها ثم تطلقه على هيئة موجات بيض تدور حول رأسها لتتلاشى في الهواء. تود أن تحرق جذوة العمر المتبقية لها في مغامرتها

القاتلة في زمن لم يتسرب منها لوحدها، إنما من ملايين يشبهونها. تذكرت حقا، دون أي شعور مسبق، بلوحة "بوزايدون" ، تلك المعلقة في مرسم صديقي مرتضى. أما الأولاد المتجمعون فيما بينهم فكانوا لاهين عما يجري في الشوارع، والساحات. عيونهم تمسح كل ما هو جديد عليهم من أطعمة، وألبسة، وقصّات شبابية غير مألوفة، وواجهات أبنية لم يروا مثلها في حياتهم.

وكان السيل البشري يتدفق إلى الساحة أو يخرج منها نحو الأزقة المتشابهة. بشر من كل لون وشكل، محجّبات، سافرات، ملتحون، مراهقون كثّو الشعر، حواة، متسكعون، مدمنون يمشون بتثاقل، كلاب من أحجام مختلفة. المدينة الحديثة ذاتها إذن، المدينة التي طالما أدهشت الجميع بفنونها، وتحولاتها، ومآسيها، وقصصها المستعادة منذ فجر البشرية حتى اليوم.

- هل رأيت ساحة الذبابة، سألني سام ونحن نتوغل في الطرق الجانبية بدون هدف.
- كلا، يا له من اسم غريب. وهل للذبابة ساحة؟
- في الحقيقة نحن من نطلق هذا الاسم عليها، ربما لها اسم آخر. سنقودك إليها.

بعد دقائق من المشي غير المنتظم، والوقفات

القصيرة، والحوارات البرقية التي تسعى لاكتشاف المقابل، إذ الحوارات عادة ما ترسم صورة للبشر، وإن كانت صورة مختصرة مكثفة قد لا تكون حقيقية، دخلنا ساحة الذبابة جميعا بخطى مرحة. الأولاد خاصة. وتخيلت منظرهم وهم يسيرون في نسق واحد، سابحين في أفكارهم وثرثراتهم وملاحظاتهم المكتظة بالدهشة. وفي لحظة خاطفة، رأيت مثل رمشة جفن مصيرهم للسنوات القادمة. رأيتهم بخبرتي في هذه القارة العجوز التي استقبلتني ذات يوم، واستقبلت الملايين قبلي منذ عشرات السنين. ستستعاد القصص ذاتها مع كل جيل. سيدخلون مدارس اللغة، وسيدور بينهم حوارات طويلة عن صعوبة تعلم لغة أجنبية بهذا العمر بالنسبة للبالغين، أما الأطفال فستكون اللغة سهلة كون أدمغتهم لم تتعب، وذاكرتهم ما زالت طازجة، فارغة، تستوعب المفردات الجديدة، والأفكار، وشواذ النطق. أمامهم وقت طويل لعقد المقارنات بين هنا وهناك، الجو، الطعام، الألفة الاجتماعية، مرور الزمن، الأشجار، طعم الماء، الصداقات. وسيدخلون بعدها في سوق العمل الإجباري لأن الدولة لا تعطي النقود دون مقابل، وهي ليست جمعية خيرية حسب تصور البعض.

شهور وسنون وعقود، ومن بعدها يبحثون عن بيوت أفضل، وأثاث جديد. وتنصبّ حواراتهم الليلية على الوطن البعيد الذي يأتي على شكل ذكريات جميلة. ذكريات

فقـط. سـيتذكرون الأطعمـة التـي تعدهـا الأم، واللحظـات السـعيدة في الأعيـاد والاحتفـالات، والحنـين الـذي سيشـكل سـمة بـارزة على وجوههـم، خاصة للنسـاء. الأولاد سـيكبرون سريعـا، يصبحـون صناعـة لهـذا المـكان، يتكلمـون اللغـة بطلاقـة، ويستخدمونها حتى في البيـت أحيانـا، وستكون لهم ألعابهـم المسـتوحاة مـن هـذا المجتمـع، واهتماماتهـم الوليـدة للبيئـة الجديـدة، وأصدقـاء مـن لـون آخـر. يغيـب مـن وعيهـم أبطـال تاريخهـم، رموزهـم الدينيـة، التواريـخ المهمـة لتلـك الأرض البعيـدة، وسـيدخلون في مـدارس وجامعـات، ولا يعـودون يتذكـرون مـن تفاصيـل الوطـن سـوى خيـالات دخانيـة وأشـباح غامضـة. وحـين يـدور الحديـث بـين الكبـار عـن العـودة إلى هنـاك إذا مـا تغـيرت الأوضـاع في الوطـن، يستنكرون الأمـر بحـدة، ويقولـون لآبائهـم سنبقى نحـن هنـا، ارجعـوا انتـم واتركونـا لمصيرنـا. لا أحـد يـترك هـذه الجنـة ويعـود إلى الجحيـم. سـيكبرون، الأطفـال يكـبرون دائـما، والجميع سيكبر، ويبدأ بمراجعة الأطباء مـن أمراض السكّر والضغـط والأمعـاء والأمـراض النفسـية، وسـتتلون الشـعور لاحقـا باللـون الأبيـض، وهكـذا حتـى يصلـوا إلى نهايـة الرحلـة، أي إلى قـبر كئيـب في مقـبرة ذات تربـة بـاردة. هـذا مـا جربتـه، وعشـته خـلال رحلتـي الطويلـة عـبر البلـدان، والمـدن، والقارات.

- هـل جئتـم عـن طريـق البحـر، كحـال الآلاف

المنتشرين في القارة؟ سألتهم بتردد.

- ليس كلنا، لكن الرحلة كانت متشابهة.
- لا يمكن أن يكون هناك رحلتان متشابهتين. ستسمع القصة إن رغبت في المجيء معنا، بيتنا لا يبعد كثيرا عن المحطة. أنا على سبيل المثال، ابتدأت رحلتي الحقيقية من القاهرة التي عشت فيها سنة تقريبا، لكن معاناتي بدأت من إسطنبول. بدأ سام يحدثني عن ماضيه بصوت حزين، لم يعتد الفنان على العزف في الشارع، هي فكرة أوروبية بامتياز، ورأيتها في تركيا بعد وصولي إليها هاربا من المذبحة. الشارع ليس مكانا مفضلا لدي، لم اعتده في الحقيقة، وهو تجربة جديدة دخلتها بتوجس. وقتها كنت أتخيل الجمهور يحدق بي ساخرا، وينتظر أخطائي وعثرات أصابعي، لكن الحياة تدفعك أحيانا إلى طرق لم نفكر بها سابقا. ألم تدفعنا الظروف القاهرة إلى التفكير بوسائل انقاذ لم تكن تخطر ببالنا قبل سنوات؟ من كان يفكر بعبور البحر بقوارب مطاطية؟ أو ينام في العراء بين الشجر؟ أو يجهل ما سيحصل له بعد ساعة من الزمن فقط؟ أو يعيش في مخيم للاجئين؟ ما أن تحل الكارثة الكبرى حتى

تنتقل تلقائيا إلى الأفراد المساكين الذين لم يضعوا في حسابهم قدوم موجة عاتية مثل تلك. كنا نمر بضائقة مالية، وبالأحرى لا نمتلك أي مورد، وكان أمامي دفع ايجار، وتوفير الطعام لزوجة وولدين، وأخت زوجتي عاطلة عن العمل هي أيضاً، هي فم آخر بحاجة إلى طعام. وبعد أن فشلت كل محاولاتي للحصول على عمل في إذاعة أو مؤسسة، سواء تركية أو سورية معارضة، لم يعد أمامي سوى النزول إلى الشارع، أنا وغيتاري الذي رافقني من الشام حتى اسطنبول، مرورا بمصر الاهرامات. كان يلتصق بي مثل زوجتي وولديّ، أحلم به يدغدغ أصابعي حتى أثناء النوم، فليس لي رفيق سواه في هذه المحنة.

سام، رغم تلك المأساة التي عاشها منذ خروجه من دمشق وحتى وصوله إلى لوفان، شخص مقبل على الحياة بروح الفنان المتمرد. يرقص بحبور، ينط، يعزف ألحانا من وحي خياله. هكذا بدا لي. كان يرمقني بين الحين والآخر كما لو يقول لي انظر أنا لست كاتبا مثلك، لكنني فنان يمتلك الحياة. وأثناء تحديقنا بالذبابة المعلقة على عمودها الطويل، لم تكف المرأة الكبيرة عن التدخين، حتى وهي تنظر إلى الأعلى، إلى الأجنحة والأطراف والجسد، لذلك

الكائن الذي يحلق في سماء المدينة، وكانت الأضواء المزروعة في الجسد الصغير، المعلق على العمود، زرقاء كأنها جذوة حلمية.

عالم آخر وجدت نفسي أنغمر فيه وأتغلغل بين دهاليزه. أتغلغل بين التعابير الموحية، والابتسامات المواربة، والنداءات المنطلقة من أعماق نالها العذاب ذات سنة، وأشك في أنني لا بد لي أن أعلق هناك مثل ذبابة في سائل من العسل. ترمقني الكبيرة بين الحين والآخر بنظرات قلقة، مستطلعة، فضولية، وكأنها تحاول مقارنتي بالرجال الذين مروا في حياتها. قرأتها على أنها كتلة من التردد والحزن والانكسار والضياع، صامتة بالكاد تنطق إلا حين يوجه لها الموسيقي سؤالا، أو تسامر أختها الصغرى بهمس، وربما تبقى تلك الأخت الصغرى كما فكرت، هي البقعة الوحيدة التي تحس قربها بالأمان. لا بد أن تكون من أولئك البشر الذين يمتلئون خوفا من الغرباء، أو الظروف المستجدة، الظروف الأكبر بحجم هائل من تجربتها البسيطة في هذه السنين الشاذة. الجسد ضامر. الشعر فاحم. تقدّر بأن وجودها على الأغلب خطأ في هذا المكان، لكنها مجبرة على قبوله. لكن أين زوجها؟ خطر لي هذا السؤال ونحن نتسكع في وسط الساحة بدون هدف، ورغم أنني أسمع تداعيات سام حول معاناته في الوقوف في الشارع، والعزف أمام المارة في شارع "الاستقلال" وسط اسطنبول، ومراقبتي

لتعابير الأختين وهمساتهما، إلا أنني، وفي الوقت ذاته، لم أكف عن التحديق فيما حولي، ومراقبة كل شيء. وهي عادة متأصلة فيّ، وربما موهبة، نمت لديّ منذ أن تحولت إلى كاتب. المقرنصات ذات الظلال الموحية، وبدت كما لو أصبحت كائنات حية متناهية الصغر، والزخارف الضاحكة في أبواب الكنائس، والبيوت العتيقة، وبلاط الشوارع المربع وكأنه يحدّق إلى قرون ماضية من تاريخ المدينة. الشجر المنتصب في الباحات، النوافذ المنزوية في الممرات، الزجاج العازل لتلك الأعاجيب في المحلات من مانيكانات، وتماثيل مدهشة، وستر قماشية أو جلدية، وتنانير نسائية أنيقة، وأحذية للرجال والنساء، ووجوه الجالسين في المطاعم الصغيرة، الوجوه المستمتعة بطعم الوجبات الساخنة.

عالم آخر. حدائق الأزقة وهي تضاء بأنوار تشبه الحلم، الأصوات ذات النبرات الغريبة، الروائح اللذيذة، طعم المساء الهاب من جهة ما لا على التعيين، هذا وغيره مما يرسم لوحة بانورامية للحياة في كل بقاع المعمورة، كان وما زال مادة أثيرة أستخدمها في قصصي، ورواياتي، وحواراتي مع الأصدقاء، وتأملاتي العميقة عن مغزى الوجود الانساني على هذه الصخرة العملاقة. الصخرة الطائرة أسرع من رصاصة بين النجوم والمجرات. والهدف كما أؤمن هي الرحلة التي تمتد من الرحم حتى القبر، وفي

زمان ما، ومكان ما يجهله المرء، ولا يمكنه التنبؤ به. ذاك ما كان يعطي لنصوصي، وحتى شخصي، مسارب حية ملونة، نابضة، راعشة، متدفقة من دون انقطاع، بحيث يشمها القارئ، ويراها، ويسمع إشاراتها الخافتة. زيارتي لصديقي الفنان مرتضى تندرج في هذا الإطار. كنت أرغب في رؤية رسوماته، ومدى التغيّر الذي طرأ على ألوانه منذ أن التقيته في دمشق قبل سنوات. لكن ماذا وجدت غير هذه العلاقة المرتجلة مع تلك العائلة السورية؟ وجدته يعيش في بقعة هادئة تقع على حدود المدينة الدائرية، محاطة بالغابات، تحت هيمنة جرس كنيسة يدق على حافة كل ساعة من الزمن البشري، تنام ما أن يحل الظلام، أو هكذا تبدو للغريب. جال بي مرتضى بعد الغداء على الغابات القريبة، بطيورها وزواحفها ودروبها الضيقة الموحشة، وكستنائها، وغربانها، ورطوبة حشائشها البرية، وتأملنا في الكنيسة المقابلة لبيته، وتلك الزخارف التي يراها كل صباح بلون نابض، وهيئة مختلفة، كما أكد لي. وتناقشنا طويلا عن رسوماته، واستعدنا ذكريات مضت عليها سنوات، ولمست في روحه أشعة من اليأس، أو اللاجدوى والفراغ المرعب. ووجدته وكأنه يستعيض عن الحياة بالألوان، والنساء المصنوعات من الزيت، وعري الجدران. الحياة لم تعد تضيف لي أي شيء، كرر تلك الفكرة على مسامعي أكثر من مرة. أنا على عكسه تماما، رؤيتي تختلف.

وكانت الذبابة تحلّق مثل أفكاري وتداعياتي في السماء البعيدة التي ظلت تحتفظ بألوانها البهيجة، الوردي والأحمر والأسود والبرتقالي، وكأنها لوحة من لوحات صديقي مرتضى، ولا ينقص تلك اللوحة سوى الوجوه النسائية، والأجساد المتحركة الراقصة، والعيون الموحية بمختلف العواطف، والتعابير.

عازف الغيتار

في ذلك الليل الفلامنكي الساحر كنت أداة طيعة تتقمص قدرها الوجودي كله، واسطة لا بد منها لنقل تلك التجربة السورية القاسية التي باتت معروفة للجميع. واحدة من مسرحيات عصرنا المضحكة، كما سمّاها صديقي مرتضى في الليلة الفائتة.

قال لي سام بصوت راعش، وهو يدفع شعره الأشيب خلف أذنيه أثناء ما كنا نمشي بدون هدف، وسط أضواء مدينة لوفان: كان يوما رائقا، ما زلت أتذكره وأعيشه بتفاصيله الصغيرة. نزلت إلى شارع الاستقلال وسط إسطنبول، بعد لقاء فاشل مع إدارة إحدى الإذاعات المعارضة. شعرت بأن الطرق مسدودة أمامي. لا يمكنني العمل حمّالا لدى متجر ما، أو غاسل صحون في مطعم، أو خازنا لأحد المتاجر كما يفعل معظم أقراني السوريين الذين انتهوا إلى الإقامة في إسطنبول. الهجرة الواسعة كشفت معدن الجميع. كنت أسير في شارع تقسيم وقتها، موزعا

بين أفكار كثيرة تراودني حول حياتي الجديدة هنا. مدينة كانت ذات يوم امبراطورية لا تغيب عنها الشمس. كنت أسير سارحا في جموع البشر وهم يمشون نحو أهداف مبهمة، ومن كل الجنسيات تقريبا. في ذلك النهار البهي، جذبت سمعي قبل نظري أصوات فرقة سورية تعزف في ركن من أركان الشارع. كان يحتشد حولها المارة بفضول وحب، فقررت التمهل لرؤية العازفين. الألحان، والأغاني المقدمة، كلها بالعربية، والسورية تحديدا. لدهشتي، ولحسن حظي على الأغلب، تبيّن لي أنني أعرف بعضهم. وقفت أتفرج، وأسمع، وراحت أصابعي تعزف خفية على غيتار وهمي، حتى أنهت الفرقة وصلتها متوجهة لاستراحة قصيرة. ألقيت السلام فهبّ عدد منهم لمعانقتي والترحيب بي، وبانت الدهشة على وجوههم، وكأنهم يتساءلون مع أنفسهم هل هذا الواقف أمامنا هو سامي ملك الغيتار في المركز الثقافي الروسي حقا؟ وكان هناك اثنان من طلابي حين كنت أدرّس الموسيقى في المركز. أظن أن الترحيب الحار بي جاء بسبب انحيازي إلى الثورة أكثر مما هو احتفاء بفني. كم من ممثل فاشل احتفي به بسبب انحيازه للثورة؟ وكم كاتب متواضع الموهبة صفقت له الجماهير؟ ثم جاء الحديث على اشتراكي معهم في العزف فأخبرتهم أن علينا، إذا ما رغبنا في التعاون، إعادة توزيع الأدوار، ووضع مخطط للعزف للأيام القادمة فوافقوا. في مقهى مجاور يقدم

الأطعمة السورية، جلسنا وتم الاتفاق على إعادة توزيع التراث الغنائي السوري والعربي وإخراجه بحلة جديدة، وسنقتسم العائدات نهاية اليوم. وافقوا. كانوا يعتبرونني معلما لهم. معظمهم تذكروا براعتي حين كنت أدرّس الموسيقى.

قلت لك إن بعضهم كانوا تلاميذ في صفي. وفي ذلك المساء، جلبت للعائلة كيلو كباب، ومسبّحة، ومتبل، مع خبز ساخن من أحد المطاعم السورية، وقد انتشرت تلك المطاعم بكثرة مع اشتداد الهجرة الجماعية إلى تركيا، احتفاء بالعمل وبزوغ ذلك الأمل الصغير في حياة مستقرة وآمنة. قضينا الليل نرسم الخطط للمستقبل، وماذا سنعمل حين يتجمع المال بين أيدينا. تلك الليلة، وقبل أن ننام، اقترحت لميس زوجتي الهروب إلى أوروبا للخلاص من الفقر، والجوع، ودفع الإيجارات للسماسرة. تلك الأيام أصبح العبور إلى اليونان عبر القوارب حمّى اجتاحت الجميع. هكذا تغيرت أحوالنا. أغاني لبنانية، أغاني سورية، أغاني مصرية، وعراقية، نعزفها ونغنيها بتوزيع جديد لاقى رواجا لدى السواح العرب، والأتراك الماشين في شارع الاستقلال، وهو أهم شارع في اسطنبول كما تعرف. في البداية كنت أختبئ خلف عازف الأكورديون خجلا من المارة، وددت لو أمتلك قناعا لأضعه على وجهي خشية أن يتعرف عليّ واحد ممن رأى مكانتي وعزّي حين كنت

أعيـش في دمشـق. وهكـذا ولـدت فرقـة "دومسـك" ، التـي أسسـناها، وهـي مـزج بـين كلمـة "داماسـكوس" الانكليزيـة، وكلمـة "هومسـك" التـي تعنـي الحنـين إلى البيـت أو الوطـن. تخيّـل: مـن حفـلات خـان أسـعد باشـا العظـم، والمركـز الثقـافي الروسي، إلى شارع الاستقلال في العراء السقيم.

مـرّ اليـوم الأول صعبـا بحـق، لكـن مـع الحاجـة إلى المـال، ومعاناتنـا الكبـيرة في تدبـير معيشـتنا، بـدأت أعتـاد عـلى الأمـر، ورحـت أجنـي مبالـغ يوميـة لا بـأس بهـا نهايـة كل عـزف، وكنـا عـادة مـا نتقاسـم النقـود عنـد منتصـف الليـل بالتسـاوي. لم أعـد أهتـم لقـول بعضهـم بـأن مـا نفعلـه هـو تسـوّل بطريقـة حضاريـة، بالـذات تلـك التعليقـات الـواردة إلى صفحـة الفرقـة عـلى الشـبكة العنكبوتيـة بالاسـم نفسـه، ومـن أصدقـاء أعرفهـم جيـدا. بعـض منهـم مازالـوا يعيشـون في الداخـل. تعليقـات لمسـت فيهـا الشـماتة والتشـفّي. عذرتهـم لأنهـم تحـت وطـأة سـلطة لا ترحـم. فكـرة بيـع الموسـيقى، أو اسـتهلاكها، رفضتهـا سـابقا، لكننـي خلفتهـا ورائـي، عنـد شـارع العابـد، وسـوق سريجـة، وفنـدق الشـام، وقـصر العظـم الـذي أقمـت فيـه حفلتـين ذات صيـف مـن الأصيـاف البعيـدة التـي ركضـت مبتعـدة ورائـي كأنهـا سراب صحـراوي. وقـد ولّى الزمـن القديـم الـذي كنـت فيـه مدرّسـا للغيتـار، وصانعـا لنجـوم غنائيـة احتلـت مسـاحة مـن الشـهرة. نحـن نبـدأ تاريخـا جديـدا، وينبغـي نسـيان المـاضي. بـدأ المشـوار الصعـب في حياتنـا،

تشظينا مثل برميل متفجر أسقط على واحدة من مدننا. اهتزت الأرض من تحت أقدامنا وينبغي الثبات. نحن بمواجهة المصائر الشخصية لا سيما وأننا وقفنا عاجزين طوال سنوات فلم نغيّر المعادلة. في النهاية هام كل منا على وجهه، مثل طيور البراري. تتجمع وتحلّق في الفضاء دونما هدف. هي حرة، صحيح، لكنها تفتقد للاستقرار.

وخلال حديث سام تذكرت الليلة الماضية حين باح لي صديقي مرتضى عن اليأس الذي صار جزءا مهماً من حياته، وقال إنه لم يعد يؤمن بالوطن، والعلاقات الاجتماعية، والهدف في هذه "الحياة الجرداء" كما سمّاها، والغياب صار سمة لهذه السنوات، وضرب مثلا بغياب صديقه نصير الذي اغتالوه على طريق "محمد القاسم" وكان، ذات يوم، نجما لامعا في سماء مدينة لوفان، نجما لامعا بين المغتربين ممن أحبوا المدينة ودرسوا فيها وتزوجوا. عوّد نفسه على العيش في لوحاته فقط. وها أنا أسمع النغمة نفسها تقريبا من سام. كنت أسمع بوح سام بمزيج من التعاطف والألم، لقد مرت شعوب كثيرة بتجربة مثل هذه. فكرت بعبارة غيتار وهمي، وهي تعكس تعلّق سام بالفن، وبحثه عن جمال ثابت تحت الظروف جميعها. هو يشبه النحات الذي نفّذ تمثال المعرفة وهاجسه في الوصول إلى الحقائق المطلقة لدى البشرية عن طريق الفن. ثمة ماء أبدي يصب في رأس ما فكرة ما على مر العصور. وثمة

منهل للمعرفة وتراكم الخبرات تتجسد في كتاب يشبه كتاب الرمل الذي تحدث عنه الكاتب لويس بورخيس الأرجنتيني. وفكرت بوحدة الفن في هذا العالم ماضيا وحاضرا، وكيف ينسج البشرية بخيوطه الأبدية. حين تغادر وطنك وتتحول إلى صفر بشري، وتعيد بناء حياتك مرة بعد أخرى. لقد عاش أصدقائي التجربة ذاتها، ومنهم مرتضى الذي أقيم عنده. الفرق فقط في الفترة الزمنية التي تتكرر بين عقد وآخر، أو بين قرن وقرن.

ترى ما الذي ينتظر سام في السنوات القادمة؟ ورد هذا السؤال في خاطري وأنا أجيل بصري في الساحات والأزقة والبشر وهذه العائلة التي قذفتها الظروف إلى سرّة الكرة الأرضية. بعيدا عن فندق الشام، وساحة المرجة، وجرمانا، وصحنايا، وشارع العابد والحمرا، وجبل قاسيون، والمركز الثقافي الروسي، كما قال سام في بوحه الأليم. تخيلتهم وكأنهم قنبلة انفجرت وتشظّت في عتمة ليل الشام. حتى في الأحلام لم يكن أحد ليتخيل المصير الذي وصلوا إليه. شيء مثل كابوس. فكرت أنهم يستنسخون التجربة العراقية بحذافيرها، التجربة التي بدأت منذ أول إطلاقة مدفع على الحدود الشرقية. وكنت أراقب بحذر مدفوعا بتوق معرفة كل شيء، وملاحظة أدق النبرات الصوتية، والتعابير في الوجوه، وطريقة المشي. زوجة سام على سبيل المثال، تختلف عن طبيعة أختها، هذا

ما يبدو عليها بوضوح، تمشي بجسد ممشوق، خاصة وهي ترتدي فستانا أسود، مشدودا إلى جسدها ليبرز ثدييها اللذين يهتزان مع خطواتها المتوثبة على حجر الساحة. جعل الكعبان العاليان من مشيتها رقصا متمهلا يليق براقصة باليه. رقبتها تتطاول على كتفين عريضين وكأنها تؤكد لنفسها قوة الأنوثة لديها. هي المرأة الوحيدة على سطح هذه الأرض.

كانت عيناها المكحلتان تتنقلان على الوجوه بخفة، فيهما تعابير شبقية قد لا تتلاءم مع وجودها مع زوج كهل يقترب من الستين عاما. إنها تتوق إلى المتعة والألوان والمرح، ألتقط من بين شفتيها أحيانا بعضا من أغاني فيروز بصوت رخيم منغّم يستدعي الغرام، والحب، والتوق إلى المجهول. تعرف ما تريد. تدفع صدرها إلى الأمام وهي تمشي، وكأن ذلك دلالة واضحة على عدم خوفها من مواجهة الحياة. ليس عكس اختها نبال المنحنية الظهر وكأنها تتوقع ضربة من الخلف، الخلف رمز الماضي الثقيل المفاجئ عند الهجوم على الشخص كما تقول كتب التحليل النفسي للشخصية ولغة الجسد. كلما تطلعت في نبال أجد غيمة ألم تحيط برأسها تشي برفضها لأنساغ الحياة وضجيجها، ليتبادر لي بأنها متقوقعة على ذاتها وخفايا ذكرياتها وقد نسيت روحها هناك، فكفّت عن مشاركة البشر ما عاشته خلال سنواتها السابقة. خطواتها أثناء

المشي قلقة كما لو كانت تهرب من ملامسة الأرض، وجسدها يستغيث من خطر ما تتخيله قادما من كل جهات الأرض، وثمة إحباط عميق في بشرتها البرونزية، وثمة قرف داخلي تكوّن بلا شك عقب كل تجربة مرّة تغلغلت في دمها، الأمر الذي أثار في داخلي فضولا هائلا للتلصص على خفايا عقلها، وأحاسيسها، ومشاعرها، وكيف انتهت لتصبح كتلة ألم متحركة. أظن أنها ومنذ سنوات سابقة كفت عن انتظار الخلاص أو الوصول إلى طريق يؤدي بها إلى حيز الطمأنينة.

نبال امرأة مليئة بالأسرار، ومثلما تظهر شخصية الانسان من خلال الحديث كنت أتوق إلى حديث نبال، وخبرتي في الحياة والكتابة علمتني أن البشر العاديين تظهر نوازعهم، وأفكارهم، وحقيقتهم، من خلال نمط الحديث. أين يتوقفون، وكيف يدمجون خبراتهم ببراعة، أو يحذفون بعضها، وما هي الكلمات التي ينتقونها للتعبير عن تجاربهم. صديقي مرتضى على سبيل المثال، لا يحتاج إلى الكلام كي يعبر عن نفسه، لوحاته هي حديثه، تكشف رغباته، وحنينه، وحساسيته تجاه الوجود. ورغم أنني أصغي بانتباه إلى سام وهو يروي معاناته في إسطنبول في بدايات وصوله اليها مع زوجته وولديه، لكنني ممتلئ فضولا لسماع قصة نبال المرأة، المطلّقة، المنحنية الظهر عند المسير، المرأة المليئة بالأسرار. أين زوجها؟ وكيف وصلت إلى هذه الأصقاع؟

سحر الحكايات التي أسمعها من تلك العائلة جعلني أنسى الرجوع إلى بيت مرتضى، ولا أحس بالطريق وهو يتلوى بنا نحو جهة ما غير معروفة لي. أنا غريب هذه المدينة المدوّرة السابحة في أشعة شمس صيفية غاربة.

تجاوزنا محطة لوفان للقطارات حيث تتقاطع السكك الحديد لتقود إلى المدن والبلدان البعيدة. الأفق ممتلئ بالطيور، والغيوم تتجول بحريّة تحت أشعة ذهبية راسمة مشهدا سيبقى راكزا في ذاكرتي. ثم قادنا ممر تحت أشجار وارفة أظنها لأشجار جوز بريّ إلى تقاطع مع شارع يميل إلى اليسار، ثم إلى شارع جانبي عريض باتجاهين، ووقفنا أمام باب حديدي يقود إلى الطابق الثالث عبر درج ملتو عتيق. إنهم يقطنون في بناية عتيقة، رائحتها ثقيلة تنتشر بين الجدران، والأبواب، وعمق الدرج. لا يمكن أن يكون هذا السكن إلا لكتلة لاجئين هربوا من جحيم حقيقي ويقنعون بالإقامة في أي مكان يحتوي على جدران وأبواب وغرف نوم وسقف لا يتلقى القذائف، والبراميل المتفجرة، والغازات السامة. هكذا علمتني التجربة في القارة العجوز. أما نوعية السكن، قدمه ونظافته، فتحولت إلى ترف لا يحلمون به، ولا يعيرونه أية أهمية. تجمّع الأولاد في غرفة تقع في أقصى الممر، تقابل المطبخ تماما، وتعالت أصواتهم وهم يلعبون على شاشة الموبايل، أو يتقاذفون كرة فيما بينهم، واستنتجت أنهم يمتلكون عالما خاصا بهم لم يعد

ينتمي إلى عالم الكبار المثقل بالماضي.

كل الذين التقيتهم، وعاشرتهم، وخالطتهم في هذه القارة ممتلئون بالماضي، وكأنه هوية صلدة لا يرغبون في التخلي عنها. صارت جزءا من أرواحهم يموتون حتما إن هم غادروها. دخلت لميس لتعد لنا قهوة عربية مخلوطة بالهيل، وانتحت نبال ركنا من الصالون وجلست دون أن تفارق السيجارة يدها. عيناها فقط هما اللتان تتحركان وتستفهمان عن شخصية هذا الرجل الجالس في بيتهم. لحظات من الهدوء ثم أمسك سام بغيتاره، وبدأ يمرّن أصابعه بصوت خافت. هنالك ألفة. هنالك حميمية. أطفال وعطور نسائية. ورنين الغيتار الخافت شكّل خلفية سمعية لكل ذلك. ونحن نشرب القهوة تخللت جلستنا حوارات متقطعة، متكلفة بعض الشيء، ومترددة، دار معظمها عن انشغالاتهم اليومية وهمومهم، وحدثتني نبال بصوت راعش عن نتف من معاناتها في الوصول إلى لوفان. ولم يكفّ سام عن اللعب على أوتار غيتاره، وأحسست بأنني ارتبطت برباط خفي مع تلك العائلة، الرباط الذي تصنعه الحكايات بين الأرواح التائقة للوصول إلى جوهر البشر الشبيه بكتاب مغلق، أو بتمثال غنيّ بالرموز والدلالات.

بعد شرب القهوة وتبادل الآراء حول حياتي ككاتب، وعلاقتي بمرتضى، وسنواتي التي قضيتها في الشام، أوصلني سام في وقت متأخر حتى الشارع، ثم أطبق الباب الحديدي

ورائـي. وكأننـي خرجـت مـن كهـف، كهـف الحكايـات والآلام، سـماع الألم الراشـح مـن الصـوت ينقـل بطريقـة غامضـة ذلـك الألم السـائل مـن الشـفاه، الممتـزج بالهـواء، المتطايـر مـن النظـرات، إلى المسـتمع وقـد تماهـى معـه حتـى أصغـر خليـة في الجسـد. وجدتني أنظـر إلى السـماء ذات النجوم اللاهثـة البعيـدة، وأمتـص صمـت الشـوارع الثقيـل لأسـتعيد هدوئـي، لقـد عـدت أنـا أيضـاً مـن رحلـة شـاقة. رحلـة نبـال وسـام ولميس، التـي اختـصرت سـنوات مـن تاريخنـا القريـب. عـدت في الطريـق ذاتـه. مـررت مـن أمـام محطـة القطـارات، وتأملـت لحظـات بنصـب المحطـة الـذي قـال لي مرتـضى إنهـم دونـوا عليـه أسـماء القتـلى الذيـن سـقطوا مـن أبنـاء مدينـة لوفان في الحـرب العالميـة الثانيـة. وجدتـه يشـبه مسـلّة بابليـة ذات ارتفـاع يتجـاوز الأربعـة أمتـار، وبوجـوه مربعـة مطليّـة بالجبس. اسـتخدموا في التدويـن مصطلـح شـهداء، ولم أعـرف حقيقـة سـبب استشـهادهم، وفي أي جانـب وقفـوا في تلـك الحرب. ربما قاتلوا ضد النازيين. الشعوب لا تنسى أبناءها.

الطريـق الدائـري شـعرته طويـلا بعـد ليلـة البـوح لتلـك العائلـة. وأسـتطيع تنفـس روح المدينـة، خاصـة حين وصلـت إلى ذلـك الجسر المنتصـب عـلى القنـاة. التقطـت صـورا للقـوارب الراسـية، وامتـداد القنـاة المتجـه نحـو الشـمال، وانعكاسـات الأضـواء المنتشرة عـلى الضفـاف، وفكـرت أننـي سـأضيف كل تلـك الصـور إلى ملفـي الخـاص بمدينـة لوفـان.

في روحي بهجة كثيفة، طيور خيال تتراقص في الهواء بحرية جديدة غير مسبوقة. ليتني أتحول إلى نجمة وامضة تسعد العيون. وكل قارب راس على سطح الماء شعرت به يخفي وراءه حكاية. ذلك القارب الثقيل الواسع شهد ذات يوم قبلات بين حبيبين وهو يمخر بهما البحر. وذلك القارب الصغير ركبه صياد سمك قد يكون جارا لصديقي مرتضى. لا بد من وجود قارب شهد جريمة قتل بشعة، وآخر كان مكانا لعقد صفقة ما. لكل شيء في هذه الحياة معنى، ويمكن أن يتحول إلى مادة للقص والمتعة. سأحفظ الحكايات في رأسي، لكن المشاهد الزائلة، ما لن أراه ربما مرة ثانية بعد رحيلي المتوقع بعد أيام عن المدينة أو البلد، سأوثقها كما دأبت سابقا بصور ستتحول إلى كلمات توثّق لحظات هاربة. كلمات تحمل مثل غيوم ناعمة أحاسيس تلك اللحظات التي عشتها، مفتونا بالأمكنة التي مررت بها في أثناء التقاط الصور. قصة العائلة لا تختلف عن التجربة التي مررت بها أنا. الاختلاف في التفاصيل لكن الجوهر واحد. لا يختلف الكاتب كثيرا عن الفنان. تجد روحك في أرض الجليد، والمطر، والجزر الصغيرة، الطبيعة تختلف، واللغة غريبة، وأشكال البشر غير مألوفة، تشكّلت حياتهم عبر قرون من التراكمات العلمية والثقافية. أينما تلتفت تحس بنفورك عن المكان وعزلتك. تتقبل العناء وفي ذهنك أرض للموت، والخراب. وحين يهاجر الشخص من

بلـده، وينتقـل إلى بيئـة جديـدة، يعيـش في السـنوات الأولى ارتبـاكا مـبررا، وضياعـا يسـببه نمـط التواصـل اللغـوي والاجتماعـي. جربـت تلـك الأحاسـيس أنـا ذاتي. بعـد امتصـاص الصدمـة الحضاريـة الأولى، يعـود المـرء إلى رشـده ومتانتـه، ثـم يوضـع عـلى المحـك، وسرعـان مـا تنفذ هواجسـه، وقلقه، وصدماته الثقافية، إلى تضاعيف روحه.

وكان صـوت النهـر يـأتي خافتـا في ليـل سـاج عـلى الجميـع. ليـل فلامنكـي يحيـل البشر إلى ذواتهـم فيندمجـون مـع القـوارب الراسـية، وأشـجار التـلال العاليـة التـي أصبحـت عـلى مـر الزمـن بيوتـا للسـناجب، وخريـر المـاء القـادم مـن جهـة مـا لا أعرفهـا. رأيـت الشـوارع خاليـة مـن المـارة، وأضـواء المدينـة تنـير الطـرق للأشـباح، والطيـور النـادرة، والكائنـات الصغـيرة الدابّـة في الزوايـا وبـين الجـذور. أي مبـدع في هـذا العـالم سيظل باحثـا عـن الأجوبـة لتسـاؤلاته الداخليـة مسـكونا بهـا. ويـأتي عـلى رأس تلـك التسـاؤلات: مـن أنـا، ومـاذا أريـد مـن حيـاتي الجديـدة الممنوحـة لي مصادفـة، وكيـف ألغـي المسلّمات العتيقة. وذلـك يسـتدعي مراجعـة عميقـة، وطويلـة. مراجعـة المـاضي، والطفولـة، والأصدقـاء السـابقين، والقيـم التـي تربـى عليهـا الفـرد، والحنـين إلى سـنوات ضائعـة وأحـداث بعيـدة. وذلـك التأمـل العميـق ينعكـس كلـه في العمـل، سـواء كان لوحـة فنيـة أو قصـة أو مشـغولا يدويـا، فتـأتي مسـتوحاة مـن ذلـك المـاضي. والأمـر أشـبه بتصفيـة حسـاب، وكأن العمليـة برمتهـا عـلاج

من نوع خاص، يحتاجه الإنسان لتجاوز أزماته الروحية، والاجتماعية، والثقافية. العودة إلى الوراء شبه مستحيلة، فالمنفى، أو الغربة، لا يمتلك سوى طريق واحد هو طريق الذهاب. والحياة بعض الأحيان لا تعدو أن تكون متوالية من المصادفات.

أجل، مصادفة أن ألتقي ذلك التمثال، وأسمع حوارات العائلة، وأحدّق في واجهات الأبنية التاريخية. لعبت المصادفة دورا كبيرا في استمرار حياتي. والحنين كان يلح بطرق طريفة بعض الأحيان، كأن أتذكر طبخة صنعتها أمي، أو أشم رائحتها وأستعيد طعمها، أو يتجلى الحنين في مشهد سباحة وسط نهر بصيف قائظ، ويكون المشهد قد مضت عليه عشرات السنين. وأحيانا أتنسم عطرا من حياتي الحاضرة يذكّرني برائحة نبتة من بلدي، أو فاكهة، أو بضاعة يبيعها بائع متجول كنت أشتري منه في طفولتي. أنا إذن، وفي هذه اللحظة، واحد من غرباء لوفان، والليل يشهد على ذلك. الماضي لن يعود مهما امتلك من تفاصيل محببة. لن يكون الشخص نفسه بعد مغادرة المرء للوطن، فالتحول سيكون جذريا حتى أنه يحتل الروح والجسد. أليس هذا ما ينطبق عليّ أنا مثلما ينطبق على مرتضى، ونصير، وسام، ولميس ونبال. وربما عشرات الملايين من البشر الذين يتنفسون في هذه اللحظة هواء الكرة الأرضية. مصادفة أن يكون لدي الاستعداد للمغامرة. صحيح أن

الظـروف تلعـب دورا في دفـع البـشر إلى مغـادرة أوطانهـم، لكـن بعضهـم يبقـى برغـم الحـرب، والقتـل، والخطـف، والجـوع، والتـشرد. لا، وبعضهـم ينغمـر في تلـك المـآسي إلى جانـب القتلـة، وتجـار الحـروب، برغـم عـدم قناعته بـكل شيء. هنـاك اسـتعداد داخـلي يدفـع موسـيقيا ناجحـا، مثـل سـام، للسـفر إلى مـصر لتلحقـه زوجتـه لميس. وهنـاك ظـروف دفعت نبـال للهـرب وليـس البقـاء مـع أولادهـا. وهنـاك ظـروف دفعـت صديقنـا نصـير الـذي توطـن في لوفـان ذات سـنة كـي يعـود إلى بغـداد ويقتـل هنـاك. أجـل، نظنهـا ظروفـا عامـة تنتظـم رؤوسـنا الخائفـة الوجلـة، لكـن تغيـب عنـا بعـض الأحيـان حقيقـة وجـود استعداد داخـلي للهـروب. الاسـتعداد الداخـلي؟. الاسـتعداد الداخـلي كـي يصبـح الفـرد، الـروح المتفـردة في هـذا العـراء، كائنـا معلّقـا، منقسـما، مشـتتا بـين الهنـا والهنـاك. هـي سـمة انسـانية كـما بـدأت أؤمـن حـين بلغـت النضـج في حيـاتي. تحصـل للمغـترب لقـاءات مـع أبنـاء جاليتـه ممـن يتكلمـون اللغـة ذاتهـا، ويشـتركون بالهمـوم عينهـا، ممـا يصنـع فسـحة صغـيرة للحـوار، مثلـما حـدث لي هـذه الليلـة مـع سـام وعائلتـه، غـير أن ذلـك لا يكفـي، فأنـت غريـب أينـما حللـت. يحـاول المغـترب التواصـل مـع الصحـف العربيـة عـبر الأنترنيـت، ويقـرأ كثـيرا، خاصـة ونمـط الحيـاة في أوروبـا يوفّـر وقتـا إضافيـا للشـخص، ويمنـح مناخـا للهوايـات، ويتيـح مجـالا للابتـكار. لكـن الجـرح يظـل قائـما، والـدرس البليـغ

لحكايات المغتربين، والمنفيين، والمهاجرين، هو أن الفرد لم يعد يمتلك خيارات واضحة متعددة، فإما أن يموت جسديا ومعنويا في بلده، أو يهاجر نحو مكان آمن، والزمن كما نعرف، لا ينتظر أحدا. ظلت الكتابة لدي، ولزمن طويل، بديلا عن الحياة، والحياة أعيشها عبر الكلمات. فالتجربة تماس مع القتل، والهجرات، وفقدان الكرامة بعض الأحيان، بينما الخيال مريح، ويشكّله المرء حسبما يرغب ويتمنى. اليوم يختلف الأمر معي. لم تعد التجربة تنفصل عن الكتابة، نسغان يتعايشان في داخلي، يغذّي أحدهما الآخر.

وكانت فوق رأسي نجوم لاهثة متناهية البعد واللمعان، وغيوم شبحية عالية تسير نحو المجهول. وروح المدينة تنسحب إلى الداخل. الأضواء خالدة. الروائح تنبع من الغابات البعيدة وتنغلّ في الهواء الرائق. كل ذلك لاحظته بحبور ودهشة حين حاذيت محل الباشا، وهو محل عربي كما أخبرني مرتضى أمس. يبيع كل شيء، اللبن التركي، الفلفل والكاري، الرز البسمتي، القهوة العربية المجلوبة من لبنان، الجبن الفرنسي، التمر العراقي، والخبز العربي، وفكرت بأن المغترب يروم تأثيث وطن لروحه يعوّضه عن ما فقده هناك. عما يبعد آلاف الكيلومترات من جسده. وجدته مفتوحا فيه عدد من الزبائن، وأضواؤه ساطعة جعلته بؤرة ضوء مشعّة على أطراف القناة والتلة القريبة.

وكان الطريق نحو البيت ينعطف من خلف ذلك المحل نحو اليسار عند كتف التلة المشجرة، ثم ينفتح واسعا ليقود إلى الكنيسة الواقع بيت مرتضى بمواجهتها. منطقة لا يمكن القول إنها تتبع المدينة ولا يمكن القول إنها ريفية برغم الغابات الواسعة المنتشرة فيها، وكأنها صممت حسب رغبة مرتضى وعزلته. عند الباب رأيت امرأة في نهاية الخمسينيات تغادر بيت مرتضى، بشعر رمادي وجسد متين طويلة القامة ممتلئة بعض الشيء. خمنت أنها نزلت من باب مرتضى. وصديقي مرتضى لا ينام في الليل كما أخبرني. يقضيه في الرسم والتأمل والغياب في الماضي. يريد أن ينهي رسالته قبل الموت. رسالة الفن التي تحولت إلى كوخ شتوي منعزل في صحراء حياته. السيجارة الصغيرة لا تفارق شفتيه. يمتصها بتمهل كما لو كان يمتص رحيق الحياة، وهذا دأبه منذ أن التقيته في مقهى الروضة. لا يغيرها أبدا، ذلك النوع المسمى "توسكانو" الايطالي نسبة إلى مدينة توسكانو.

وجدته واقفا وسط مرسمه.

- هل كان لديك ضيوف؟
- نعم "ماريانا" جارتي زوجة جو. يقطنان في بيت وسط الغابة.
- تبدو امرأة جادة وودودة، سلّمت عليّ بحرارة.

- قلقت عليك، اعتقدت أنك تهت في الأزقة القديمة، اتصلت على تلفونك أكثر من مرة ولم تجب. من أي مكان التقطت حكاياتك هذا اليوم؟
- من وسط لوفان طبعا؟
- مدينة جميلة أليس كذلك؟ أكاد أعرف كل جزء منها. ما أكثر ما أعجبك فيها؟
- ذلك التمثال.
- لا تقل تمثال المعرفة؟
- نعم. هو بعينه. كان بداية مشجعة لحكاية أخرى.
- ثم ماذا؟
- وتلك العائلة.

حدثته باختصار عن يومي، وكان للعائلة مساحة واسعة في الحديث. زيارتي العائلة في بيتهم كانت رائعة، سمعت الكثير ولاحظت أدق التفاصيل، وأخبرت مرتضى بأحاسيسي في الساعات الماضية. لو أنني التقيت نبال في الشارع مصادفة لما اعتقدت أنها تمتلك كل تلك الأحداث في داخلها، هذا التفصيل البسيط لدى البشر يغريني ويتأكد لديّ يوما بعد آخر. كل فرد يمتلك قصصه، لكن بعضهم يرويها بإيقاعات خفيضة، وبعضهم بإيقاعات صاخبة مثل

طبـول تقـرع في غابـة. تخيلـت كل شـخص كتابـا مغلقـا، مثـل سـامي ونبـال ولميـس ومرتـضى ونصـير، وكل الأشـخاص الذيـن مـروا بحيـاتي في رحلتـي المتواصلـة حتـى الآن. ويدفعني الفضـول دائـما لفتـح ذلـك الكتـاب والتلصـص عـلى محتوياتـه، وتلـك باعتقـادي واحـدة مـن أهـم رسـالات الكاتـب عـلى هذه الأرض.

مدن وراء البحار

أرى مرتضى يقف بين لوحاته المعلقة، والمبعثرة في الصالون. فرشاته بيده، وسيجاره المطفأ من نوع توسكانو بين شفتيه، ليتأمل على وقع السكون العميق عالمه اللوني الذي يعيش بينه، ولأجله. أراه كأنه ساحر يفكر بالخطوة التالية لإدهاش جمهوره. عشرات اللوحات بأحجام مختلفة وموضوعات متباينة، كوّنت صورة هذا الرسام المبهور بالألوان، الباحث عن الرحم رمزاً لطمأنينة لا تجيء. ما زالت لوحاته تمحض المرأة في الدرجة الأولى اهتماما استثنائيا، مثل شاعر يتحدث في جميع قصائده عن النساء. اللون هنا هو الذي يحدد النكهة والمزاج النفسي كونه ثمرة معاناة طويلة، وتجارب متواصلة. ولهذا فكل امرأة تختلف عن الأخرى. ولكن أستطيع القول إن هذه المرأة هي امرأة مرتضى. ثم أجد نماذج من البشر المتوحدين والمشردين والتائهين، في حياة تتسرب من اليد عند لحظة إمساكها.

ما هو سر التركيز، المهووس أحياناً، على المرأة؟ هذه

التساؤلات وسواها استفضت في قراءتها منذ وصولي إلى بيته. بيته المقابل للكنيسة. حوّل صالونه إلى معرض بكل ما تعني الكلمة، وكأن وجوده البيتي صومعة للنساء المرسومات على القماش. غربة الفنان المطلقة. أكاد أن أقع على اللوحات في كل زاوية من بيته. في الحمام، والبالكون، والغرفة التي حوّلها إلى مخزن، وجنب الباب المطل على فسحة السطح، وفي المطبخ أيضا. كبيرة وصغيرة ومتوسطة، طولية وعرضية، مفردة أو بانورامية تتألف من أجزاء. فكرت أن ربط اللوحة بحياة الفنان ومصادر إلهامه، أعتبرها مفتاحاً ملائماً لدخول عالم مرتضى التشكيلي.

مرتضى علوان "شاعر اللون" ، وصفه أحد النقاد السوريين في مقال نشره في الجريدة بعد نجاح معرضه في صالة أتاسي. كلما غاصت العين في لوحاته تكتشف عمق ضرباته الموجهة لتأسيس عالم آخر لا ينتمي إلا إلى نفسه. عالم الحلم، السماء الأولى، والفرح الطفولي الذي يجسده بعنفوان، خزينه الهائل من الوجوه والخيالات البشرية والحوارات والظلال، في ذاكرة معبأة بحرارة الضوء، ومساحات القرى، وشساعة الغرف والصالات. هو بلا شك بلاطة ملونة من أرض بابل. وأعرف جيدا أن تمويه الحزن، والغربة، والانقطاع عن المكان الأول، كل ذلك سمة للمتوحدين والمغتربين، المتفجرين بالحنين إلى مسقط الرأس والطفولة. ابحث عن الغربة هنا! وإذا لم تكتشف

الحزن في العينين فوراً، فإن الكثير من الإشارات والقرائن تشي به وتدل عليه: وقفة المرأة المتعبة، الانتظار اليائس، الأكتاف المتهدّلة مثل كتفي نبال، الرأس المائل، حركة اليدين أو القدمين، هذا اليباس في الروح الذي يتخفى من غير أن يختفي. الغلالة السرمدية من الحزن على بشرة كل امرأة شرقية. ألا تجسد نبال على سبيل المثال، ذلك الحزن على وجهها بوضوح؟ كل هذه القرائن، وغيرها، تؤكد الحزن، تجعله قوياً حين أمعن النظر باللوحات، حين أدقق في الشخصية التي أراها.

هل يجد مرتضى في المرأة حالة تعبيرية هائلة، حالة حزن، وإغواء، وفرح خجول يكاد أن يتقمص روحها، أو تسكن في أنامله بلا وعي؟ ألا تجسد المرأة عالماً غريباً يتوق إلى اكتشافه، تعوّضه ما أن يقدّمها في اللوحة، عن حالات الرقص والغناء والرفض والاحتجاج؟ نساء راقصات، نساء حزينات، نساء في حالة خدر يتمددن على أرائك منجّدة بالحرير، ألا يوحي ذلك ببحثه الأزلي عن الأنثى؟ فهمت من صديقي مرتضى أنه يفتقد لحنان أمه، منذ الصغر، قد يفسر هذا هوسه برسم المرأة، الأم، العشيقة، النصف الآخر في المتوالية البشرية، الذكورة والأنوثة. لم أسأله عن ماريانا وحقيقة علاقته بها، لكنني استنتجت أنهما على علاقة خاصة لا يريد وضعها في خانة محددة. كثافة ألوانه تدل على توق داخلي لامتلاكها، وإلا كيف

يكرّس شخص ما دقائق عمره، وساعاته، وأيامه، وسنينه، لموضوع واحد؟

رأيته أكثر من مرة خلال دخولي إلى الصالون ممددا على الأرض مقابل لوحاته، محدقا بها بعمق. هل يرقص مع واحدة ويبكي مع أخرى؟ تخيلته يضاجع بعضهن في خياله، ويفترض نفسه الذكر الوحيد بين هذا القطيع الرهيب من النساء. يجسد مرتضى احترامه للإنسان ككائن من خلال الألوان والتكوينات والحركة، لخلق ما يهز الراكد والشائع عن طريق الفن. أما الضوء عنده فهو الأساس لبنية اللوحة، والألوان تتجلى قوتها بحسب الفصول. وجاءت نقلته هائلة، وبالغة الأثر، من مجتمع في طور التكوين تشكيلياً كالعراق، برغم ما يمتلك من حيوية النور والظلال وتدرجات الألوان، إلى مجتمع عريق في الفن، مدينة لوفان الأوروبية. زجاج الكنائس الملون، انحناءات الأبراج، التماثيل المقدسة المحدقة بالمرء أينما تحرك في ساحاتها. وهناك المتاحف، والكنائس، والهندسة المعمارية، والتماثيل، بلاط الشوارع وتماثيل الواجهات والزجاج الملون في الشبابيك التي تخثّر الضوء في بلوراتها عبر مئات السنين. تغير الفصول الذي تعيشه الغابات والحقول. وخلال اليومين الأخيرين كوّنت فكرة لنفسي عن مرتضى الإنسان والفنان، وقد راقبت إيقاع حياته وهواجسه وقلقه، وسبب عزلته وتصوفه في عالم الفن الذي اعتبره مستقرا نهائيا قبل

رحيلـه الأبـدي. فجّـر انتقالـه إلى الغـرب تلـك القـدرة عـلى المزاوجـة بـين اللـون الشرقـي والغـربي، وجعـل مـن روحـه نافـذة مشرعـة عـلى ثقافـات متعـددة. وكان مرتـضى يبحـث عـن لحظـات فـرح فيجدهـا في الألـوان، وعـن لحظـات حـزن فيجدها في الألوانً.

"الألـوان وطـن" جملـة عـادة مـا سـمعته يرددهـا سـواء حين التقيته في دمشق أو في نقاشـاتنا السـابقة. ترقص وتبكي، تثير وتسـخر وتحزن. وقـد تكـون لوحاتـه لاحقـا "كفنـه" في هـذا الوجـود القصير. ولأن الحياة مشبعة بالمآسي، من وجهة نظـر مرتـضى فالبـشر في حاجـة إلى موسـيقى لونيـة تغـذي أرواحهـم. وللفنـان المغـترب سـمة خاصـة تميـزه عـن غـيره كونـه يتعامـل مـع أمكنـة عـدة، وحضـارات متنوعـة، وبيئـات لونيـة متباينـة. وظهـر تأثـير ذلـك كلـه في لوحتـه. ويضـاف أيضـاً عنصر الحنين إلى الجـذور المتمثلـة في الأشـكال والكتـل والسـحنات، وقناعـات الفلاحـين، وعذابـات النسـاء المطوقـات بوحـدة التقاليـد وأسـوارها. يسـتطيع أن يعـوّد النـاس عـلى رؤيـة الأشـياء بطريقـة مختلفـة عـما تعـودوا عليـه. فطرتـه دفعـت بـه، كـما أخـبرني، إلى سرقـة الطباشـير مـن صـف مدرسـته الابتدائيـة المنزويـة في قريتـه البابليـة كـي يرسـم بهـا خواطـره عـلى أسـفلت الشـارع القريـب. وقتهـا لم يكـن يعـرف مـا هـي اللوحـة، ومـا هـي مـدارس الفـن، ولا المنظـور. في أول لوحـة لـه لـدى وصولـه لوفـان يـرى المشـاهد الحـذر الشـديد في

التعامل مع الألوان، عتمة الروح لمّا تزل تتلمس طريقها إلى الانفلات والتحليق. وثمة تردد في المزج، وخوف من البوح، إلا أن كل ذلك راح يخفت ويتضاءل، حتى وصل مرتضى في لوحاته الأخيرة إلى درجة عالية من الحرية. ثم في لحظة وجودية خاطفة رحل عن طفولته الأثيرة وبلده وذكرياته، وبعدت مكانياً وزمانياً إلى أن تحولت إلى أحلام، تأتي في كثير من الأحيان غائمة، مختلطة، مشوشة، وصار مرتضى واحدا من أولئك المغتربين المنفيين الجوالين، الذين يلاحقون نجوم مصائرهم في أصقاع الأرض. سنوات وهو يتنقل بين إيطاليا وبلجيكا وفرنسا ولبنان وسوريا والامارات ومصر، بحثاً عن نجمته التي تتناءى كلما اقترب منها.

قبل مقتل صديقه "نصير" على طريق محمد القاسم في بغداد، عاش فكرة طالما داعبت خياله. اقتناء بيت في بغداد وتحويله إلى محجّ فني، وسكن، وملتقى للأصدقاء في الوقت ذاته. عزز لديه هذه الفكرة تلك الدعوة التي أرسلها له صديقه نصير، الذي أصبح بعد سقوط النظام مستشار وزير الثقافة، لإقامة معرض له في بغداد، سوية مع زملائه المغتربين، المتناثرين على رقعة البلدان والقارات. صحيح أن المؤتمر نجح نجاحا باهرا، غير أن ما كان يراه في شاشات التلفزيون من قتل طائفي، وانفجارات يومية، وتوتر مجتمعي، منعه من تلبية الدعوة. وراودته قناعة عميقة في أن

بغداد تحولت إلى مقبرة مرعبة، وأكد له مقتل نصير المفاجئ والأليم بعد سنتين، هذا الهاجس، فقرر أن ينفّذ فكرته في دمشق. ابتاع بيتا قريبا من شارع العابد. وقريبا من مقهى الروضة حيث تعرفت عليه آنذاك. ولذلك الحدث قصة طويلة أخبرني عنها في جلسة وسط مرسمه.

- أمتلك اليوم تجربتين، شرقية وغربية، أصبحت حساسيتي مع الألوان وتبايناتها أكبر وأغنى، فالغنى الروحي سرعان ما ينعكس على نتاج الفنان، وكان لاغترابي تأثير مباشر عليّ، بسبب أن النقلة كانت نوعية بحق، قال لي ذات يوم: تخيل انتقالك من مجتمع ما زالت حركته التشكيلية في طور التكوين، مثل العراق، إلى مجتمع ذي تاريخ عريق في الفن مثل بلجيكيا. المتاحف، الكنائس، الهندسة المعمارية، التماثيل، كثافة المعارض، وهذا في ما يخص العمل التشكيلي فقط. اليوم أبحث عن لحظات من الفرح أجدها في الألوان. والحزن أيضاً. الألوان ترقص، الألوان تبكي، الألوان تثير، وهكذا. اعتبر نفسي وريثاً للشعر العربي ولمايكل أنجلو وليونارد دافنشي وجواد سليم وعبد القادر الرسام والمنحوتات الآشورية والأكدية. لم أعد أركز على الشكل. أرسم للتعبير عن وجودي.

لكـي أسـتمتع وأسـتطيع قـول شيء مـا، يعـوّض عن الغناء والرقص، والرفض والاحتجاج.

هـذا مـا بـاح لي بـه عـن عوالمـه الفنيـة حـين التقيتـه في صالـة الأتـاسي أثنـاء معـرض ضجّـت بـه السـاحة الفنيـة، والصحـف اليوميـة، قبـل أكثـر مـن عشريـن سـنة، وقبـل أن يقتـل صديقنـا نصـير عـلى طريـق محمـد القاسـم. وهـو متمسـك بتلـك الآراء جميعـا حتـى اليـوم. وقـد اسـتطاع تحويـل تلـك القناعـات إلى لوحـات خالـدة كانـت تتغـذى مـن روحـه يومـا بعـد آخـر. تلك فلسفة فنان عن وجود قصير يقود حتما إلى الموت.

لكنني اعتـبرت ذلـك جانبا متشـائما بعـض الـشيء للحياة. ألا يمكـن لنـا أن نعيـش متفائلـين في الفـن والحيـاة في الآن ذاتـه؟ وتلخيـص الجانـب المتشـائم مـن الحيـاة لمسـته لـدى "نبـال" أيضـا حـين زرتهـم ثانيـة، وقـد أصبحـوا أشـبه بمغناطيس يجذب عالمي كله إليهم.

اقتنعـت أن ثمـة خيوطـا سريـة تربطنـي معهـم، خيوطـا لهـا علاقـة ربـما بتلـك السـنوات التـي عشـناها في خضـم حـروب، وهجـرات، وأنفـاق مظلمـة لم نعـد نعـرف كيـف نخـرج منهـا. ففـي تلـك الليلـة قالـت نبـال وهـي تجلـس عـلى الأريكـة المقابلـة، وتمتـص سـيجارتها بعمـق ولـذة، وبصـوت خافـت يخـرج مـن كهـف مريـض إنهـا، وقبـل سـنوات عـدة، وضعـت ملابسـها في حقيبـة متوسـطة الحجـم، سـوداء اللـون، وقـررت تغيـير حياتهـا مـن جذورهـا. تأكـدت مـن وجـود جـواز السـفر

والنقود، ومن دون أن تودع أباها وأمها، يممت وجهها إلى الكراج مع سيارة الميكرو في صباح كئيب حمل معه دوي انفجارات بعيدة، ورياحا محملة بالكراهية تهب من أصقاع غير مرئية. كل شيء غامض في ذهنها. والعالم حولها دخان. عليها أن تستغل فرصة انفلات الحياة من حولها.

غادرت دمشق إلى بيروت التي وصلتها قبل أن تنطلق الطائرة بخمس ساعات، ومن هناك إلى القاهرة. شيء ما في داخلها يخبرها بأنها ذاهبة في طريق لا عودة منه، بعد أن أصبح وجودها لا معنى له في هذه المدينة. في القاهرة تعيش أختها لميس مع زوجها الموسيقي سامي ولديهما ابنان هما "هانيبال" و"نوار"، وكانوا يقطنون في مدينة نصر قبل أن ينتقلوا إلى مدينة 6 اكتوبر. عاشت نبال حالة مزرية من القلق والخوف والذعر، فمغادرتها لسورية تعني الابتعاد عن ابنها الكبير الذي يخدم في الجيش، وابنتها المراهقة، وابنها الصغير الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، وهم يعيشون مع أبيهم منذ سنة الطلاق. لميس تكفلت ببطاقة الطيران، وما ساعدها في الوصول الى القاهرة عدم وجود شرط الفيزا لدخول مصر كما جرى لاحقا. وخلال رحلتها من بيروت الى القاهرة قلّبت نبال مئات الافكار عن المرحلة الجديدة التي اختارتها لنفسها، واطمأنت الى فكرة الحصول على عمل في مصر، وراودتها فكرة أخرى ظلت تلوح في خاطرها كلما ضاقت بها الأيام ألا وهي

السفر إلى أوروبا، إلى تلك الجنة التي يتحدثون عنها ليل نهار، بعد الحمى المستولية على جيل كامل من السوريين الذين غامروا بحياتهم للوصول إلى هناك. لكن الفكرة تلك لم تجرؤ على الحلم بها طويلا، فهي تتطلب مقدارا كبيرا من المغامرة، ومقدارا كبيرا من النقود، وهي لا تمتلك أيا من الاثنين. أثناء تلك الشهور تفاقم لديها القلق على ابنها العسكري. العنف يتصاعد يوما بعد يوم.

القصة كانت ترويها ودموعها تتساقط من عينيها. وأحسست أنها صادقة. نساؤنا الشرقيات صادقات بآلامهن فهي متوارثة منذ قرون، لم تجد لها الحياة المعاصرة علاجا ناجعا. بدأت بالبحث عن عمل بين محلات السوريين في هذه المنطقة إلا أنها لم توفق على الاطلاق. فضلت الجلوس في البيت مثل أختها لميس وانتظار القدر لكي يوجه دفة سفينتها إلى مكان مجهول. لم تنس حلم العبور إلى تلك الجنة الموعودة التي راحت تستقبل اللاجئين السوريين بأعداد مضاعفة، عبر الطائرات، عبر البحر الأبيض المتوسط بمنافذه المصرية والليبية والتركية، في حمى لم يشهدها تاريخ سوريا منذ قرن ماض حين شاعت الحمى ذاتها للوصول إلى القارة الأميركية بشقيها الجنوبية والشمالية. وأستمع مندهشا من هذا التعلق المحموم بالماضي، فيما كان الليل يتكاثف خلف النوافذ العريضة، المفتوحة الستائر. وجدتني كما لو أجلس وسط أشباح تطل من الماضي البعيد.

ووجدت في الأمر متعة، أي سماع بوح حميم لأشخاص ينزعون أقنعتهم بجرأة. لوفان بعيدة وأنا أجلس في هذا الصالون الملفق الكاشف عن حياة مؤقتة ومفتعلة. مررت بهذه اللحظات عشرات المرات. في عشرات المدن البعيدة عن مدينة لوفان. في مصر كانت لميس عادة ما تخرج مع الأولاد للتسوق من الشارع، قالت نبال. تجلس هي في غرفة الضيوف لوحدها، تدخن من دون انقطاع، تسترسل بأفكارها وتسافر بعيدا إلى سورية، لتبدأ مناجاة طويلة مع أبنائها. تحاورهم، تضحك معهم، تحاججهم حول قرارها بهجرة البلد، تعدهم بمستقبل أفضل فيما لو وصلت إلى أوروبا. سترسل لهم من هناك النقود والملابس والهدايا، ومن يدري ربما تجري لهم معاملة جمع شمل فتجلبهم إلى البلد الذي ستعيش فيه، وتنسى سنوات الشقاء وسنوات القلق الداخلي والخوف من الآخرين. وهي خلال كل ذلك البوح تطفئ سيجارة لتشعل أخرى، بدون أن تنقطع أصابعها النحيلة عن اللعب بخصلات شعرها السائبة على وجهها. عيناها لا تستقران على شيء وكأنهما عنصران منفصلان عن جسدها وإرادتها. وصديقات لميس كن يضفين البهجة على حياتها. فهن يزرن الشقة بعد الظهيرة عادة، أو في المساءات، ويخلقن جوا سوريا خالصا من الطعام والغناء والرقص واستعادة قصص الشام، عدا عن الحديث عن همومهن مع أزواجهن ومع صعوبات الحياة

ومفاجآتها، وهي مفاجآت يمكن أن تحدث يوميا. مع تعليمها المتدني لأنها تزوجت باكرا، اكتشفت أن الموهبة الوحيدة التي تمتلكها هي الطبخ، وترتيب المائدة. والعمل يتطلب من الشخص امتلاك تخصص ما، وهي تفتقر إلى أي تخصص، في المدرسة لم تصل سوى إلى السادس الابتدائي. واستعجل والداها تزويجها للخلاص من همّ البنات كما كان أبوها يردد، لهذا زوّجها إلى أول خاطب يتقدم اليها، وكان واحدا من الأقرباء، لا يمتلك هو أيضاً أي مؤهل معتبر.

كانت في أوقات ضجرها تتفنن بعمل التبولة، أو السلطة، مع الحمص بالطحينة أو صحون المتبل الدمشقي. وتعد قدورا من المجدرة أو الملوخية بأفخاذ الدجاج، وتنتظر أثناء ما تجلس العائلة إلى الطعام بوجود ضيوف أو من دونهم، تنتظر بعينين قلقتين وتعابير خائفة، الرأي حول لذة تبولتها وصحون المتبل والحمص أو المجدرة. تنظر بحرقة داخلية لا تظهر على تعابيرها، ولا تحس بالراحة والفخر إلا حين تنطلق الحناجر مهللة لفنها الفريد في تنظيم الوجبات. هي فنانة في الطبخ تؤمن مع نفسها، معتمدة على مبدأ شائع لدى ذواقة الطعام هو أن الفم ليس العضو الوحيد الذي يتمتع بالطعام، بل هناك العين والأنف أيضا، وهذا المبدأ المضمر كان يقودها إلى عالم البهارات وعالم التقطيع الفني للخيار، والطماطم، ورسم لوحات

طريفـة عـلى صحـون المتبـل والحمـص. تلـك هـي موهبتهـا الوحيـدة في هـذه الحيـاة. مـصر لم تدهشـها كثـيرا، رغـم أنهـا سـمعت عنهـا الأعاجيـب، ومـا كان يزعجهـا أكثـر عـدم شـعورها بالأمـان حـين تنـزل إلى الشـارع. الشـارع ذكـوري بامتيـاز، وراح شـعور الاغـتراب يتسـلل إلى روحهـا يومـا بعـد آخـر. لذلـك كان القـرار المفاجـئ الـذي اتخـذه زوج أختهـا لميس بالسفر إلى اسطنبول خشبة نجاة لروحها القلقة.

مصيرهـا ارتبـط بمصـير العائلـة، ولم يعـد أمامهـا أي خيـار أو قـدرة عـلى اتخـاذ القـرار، استسـلمت تمامـا لمـا تجلبـه لهـا الأحـداث. فكـرة العـودة إلى دمشـق مسـتبعدة، فما الـذي تعمله هنـاك، برغـم شـوقها إلى أبنائهـا لكنهـا كلـما فكـرت بالأمـر وتخيلـت حياتهـا في ذلـك البيـت الصغـير بسـقفه المصنـوع مـن الجينكـو، وبـرودة غرفـه، والحيـاة الرتيبـة المتمثلـة بخدمتهـا اليوميـة لأعبـاء البيـت، وهيمنـة أمهـا وتسـلطها، وضيـاع والديهـا، ونكرانهـما لأولادهـا، والمواجهـات المتنقلـة مـن مدينـة إلى أخـرى، والعنـف في الشـوارع، كل ذلـك مسـح مشـاعر الحنـين مـن روحهـا، وأدخـل مزيـدا مـن الإصرار إليهـا كـي تواصـل الرحلـة. لـن تلتفـت إلى الـوراء، مهـما يكـن الثمـن الـذي عليهـا دفعـه في غربـة بلـد ثـان مثـل تركيـا، بلـد لا تعـرف حتى لغته.

ثـم جـاءت الغربـة الثانيـة، والغربـة واحـدة في النهايـة، سـواء في مـصر أو تركيـا. البحـث عـن عمـل، كان هـو الهاجـس

الـذي تمكـن مـن نبـال في حياتهـا الجديـدة التـي انتقلـت إليهـا بعـد أشـهر مـن مغـادرة مـصر. تعـرف أن ظـروف سـام ولميس ليسـت بالسـهلة، تأمـين الايجـار بشـكل منتظـم، أعبـاء الطعـام وملابـس الأولاد والدخـان، ولـولا خـروج سـام إلى الشـارع للعـزف بـين الجمـوع مـن أجـل تحصيـل بعـض مـن تكاليـف العيـش لمـا اسـتطاعت العائلـة البقـاء في هـذا المكان الغريـب، الموحـش، وغـير المفهـوم للاجئـين جـدد وجـدوا أنفسـهم مقذوفـين وسـط غابـة. فاللاجـئ يشـبه قوقعـة مـن دون حمايـة، يتحـول إلى طريـدة تنقـضّ عليهـا الكائنـات الجائعـة. يجـد روحـه تسـبح في بحـر مـن الرمـوز اليوميـة غـير المفهومـة، بعـد أن تتبـدل اللغـة، والطقـوس الدينيـة، والعـادات اللاصقـة في المـرء منـذ ولادتـه. تتغـير عليـه رائحـة الأرض، وطعـم الميـاه، وكثافـة الهـواء ونقاوتـه. ويتحـول بمـرور الزمـن إلى خليـة مشـدودة متوتـرة قابلـة للانفجـار. وهـذا مـا كانـت عليـه نبـال في بيئتهـا الجديـدة. كل ذلـك حتـم عليهـا البحـث بجديـة عـن عمـل، عـلى الأقـل لتدبـير مـصروف السـجائر. صحيـح أنهـا أصبحـت قريبـة إلى تحقيـق حلمهـا، أي الوصـول إلى الجنـة الأوروبيـة، لكـن العبـور يتطلـب مبالـغ لا تتوفـر في اليـد. وهـذا مـا ولّـد فيهـا الإصرار يومـا بعـد آخـر عـلى البحـث عـن فرصـة عمل تمهّد الطريق للعبور نحو المجهول.

وجـدت ذلـك العمـل في كافيتريـا صغـيرة يملكهـا رجـل سـوري مـن حمـاة، براتـب لا يتجـاوز المئـة والعشريـن دولارا في

الشهر، مع دوام يمتد منذ الساعة الثامنة صباحا وحتى السادسة. وبما أنها تقطن مع العائلة في سكن على تخوم إسطنبول، كان الوصول إلى المكان يتطلب منها السفر مدة ساعتين في الباص. كان نهارها يبدأ عند صدور الضوء. تستيقظ في الساعة السادسة، وفي بعض الأحيان قبل ذلك لكي تصل في الوقت المحدد. كانت هي العامل الوحيد في تلك الكافتيريا، تنظّف المكان، ترتّب الكراسي، تعدّ القهوة والشاي، تجهّز الساندويش. الكلمات التركية القليلة التي تعلمتها لم تجدها نفعا في التفاهم مع الزبائن، لهذا وظّف المالك شخصا عراقيا يجيد التركية، وهو من تركمان كركوك، لينقل لها طلبات الزبائن ويساعدها بعض الأحيان في ترتيب الكراسي وتوجيهها في العمل وأولوياته.

انتبهت إلى أن الشاب العراقي لا يترجم فقط بل ينام في الكافتيريا، وقد منحه صاحب المحل مكانا في غرفة صغيرة تقع أعلى المكان، ينفذ اليها الشخص عبر سلم ضيق ينزوي قرب مطبخ المحل. شروط العمل كانت قاسية عليها، فهي لا تحصل على فترة استراحة منتظمة كونها الشخص الوحيد في المحل، ويضيع وقتها بين إعداد ساندويش البطاطا المقلية، وخبز التوست، والباصطرما، والجبن، والزيتون. بعد شهر فقط من ذلك العمل المرهق قرر صاحب الكافتيريا تحويلها إلى مطعم يقدم أكلات شامية: الفول، والمسبحة، والفلافل، والفتّات. جلب المالك

عاملا متخصصا في هذا المجال، وأحسّت أنها على مر الأيام تتحول إلى شخص فائض عن الحاجة، أو بالأحرى شخص يمكن البحث له عن دور آخر غير العمل في المطعم. تحرشات المالك الجنسية لم تنقطع طبعا. اقترح عليها خلال ذلك، ونتيجة لشحة الراتب، والمعاناة التي تتحملها للوصول إلى المحل، والرجوع مساء إلى بيتها، تأمين سكن لها في غرفة بإحدى البنايات التي يستثمرها قريبا من المحل، حيث تقطن مجموعة من الفتيات.

عدا السكن، اقترح عليها عملا إضافيا يدرّ عليها بعض الأموال، وذلك من خلال تنظيف بعض الشقق التي يستأجرها السواح، وكان من بينهم عرب الجنسية. وجدت في العرض فرصة ملائمة لكي ترسم لها مستقبلا أفضل يقودها في النهاية إلى ترك البلاد والعبور نحو القارة الأخرى، أوروبا الواقعة خلف البحار. من جانبي كمستمع لقصة نبال، حدست أنه يرغب في تحويلها إلى عاهرة. وهنا جاءت إلى ذهني تلك الحكايات، والقصص، والسيناريوهات العالمية في استعباد النساء وتحويلهن إلى عاهرات.

لقد شاهدت كثيرا من الأفلام الوثائقية في البي بي سي، والجزيرة، والقنوات الأميركية، عن قصص من هذا النوع، خاصة النساء الآسيويات، والأفريقيات، والفتيات من أميركا اللاتينية. الهجرة العالمية للشعوب وقد أصبحت عنوانا لقرننا هذا، صارت بيئة ملائمة للإتجار بالنساء

واستغلالهن جنسيا. أعتقد أن انترنيت الجنس واحد من تلك الافرازات المقيتة لبصمة قرننا، وربما حضارتنا الالكترونية. حيث يباع كل شيء، ومن ذلك أجساد النساء. ونتيجة لخبرتي، رحت استوعب ذلك وأتفهمه، بل ولا استغرب ما يجري في صخرتنا الأرضية البائسة السابحة في الفضاء بلا هدف. وكان الأمر كذلك حسب نبال.

بالحدس، والمراقبة، والتخمين المستند إلى موهبة أنثوية، تبين لها أن صاحب المحل يفتتح محله ذاك غطاء لأعمال أخرى. أعمال تدور حول الصيرفة، والتحويلات، والتهريب، والسمسرة على النساء، وقد استنتجت ذلك من خلال اللقاءات المريبة له مع رجال غامضين مختلفي الهويات، ومن خلال التلفونات التي لا تنقطع، بعضها من سوريا وبعضها من الخارج، وأخرى من الداخل التركي. فكرت أنا بأن الثورة السورية استوعبت كل شيء، وشهدت كل النوازع. لا تختلف عن غيرها. ومن قرأ تاريخ الثورة الفرنسية لا يجد فرقا كبيرا فيما حدث من تحولات. ألا تختلط بعض الأحيان مع الثورة نزعة التخريب والتمرد والسرقة والانفلات الحر من القوانين، خاصة إن كانت بالية؟ أليس ذلك سمة ترافق كل تحول عميق في المجتمع؟ وهنا بدأت مرحلة حياتها القلقة، والوعرة، في عالم جديد عليها. اكتشافات أذهلتها حقا. انتقلت من بيت أختها إلى السكن الجديد، شاركتها في الغرفة فتاة عراقية، عرفت لاحقا أن تلك الفتاة تبلغ العشرين من

العمر، وتعيش وحيدة في تركيا، وأشاعت بأنها تتحدر من عائلة محترمة، فأمها طبيبة كما قالت، لكن نبال استشفت أن مجيئها إلى تركيا لا يخلو من وجود قصة خلفها. تبين أنها جاءت مع شاب هجرها ما أن وصلا إلى تركيا، وهذه القصص شاعت كثيرا في تلك السنة، سنة وصولها إلى اسطنبول. وكان هناك عدد من الغرف تقطنها فتيات عربيات، وأشكال من جنسيات لم تألفها. لغات تسمعها لأول مرة. ووجوه شقراء وسمراء وحنطية لم تر مثلها في حياتها البسيطة. كانت دائخة. مذهولة. هي في خضم عالم معاصر تجهل كل شيء عنه.

تجهل انهيار المنظومة الاشتراكية، ولم تسمع بنزاع الهند مع باكستان حول مدينة اسمها كشمير، ولا حصار كوبا وذوبان الثلج في القطبين، وانهيار قارة تسمى إفريقيا، وسيل المهاجرين العابرين بقوارب مطاطية بين افريقيا وإسبانيا، عبورا لمضيق جبل طارق، تذكرت الأندلس، وتذكّرت طارق بن زياد، وتذكرت ابن رشد. تذكرت الموشحات، وتذكرت الملك فيرناندو والملكة إيزابيلا، وأخيرا تذكرت دون كيشوت. هذا ما وفر لي غبطة ثقافية هائلة. أن أحتك بكائن أنثوي لا يدرك الحقل المليء بالشراك الذي يتجول فيه. هذه هي التجربة قلت لنفسي. التجربة المضافة. التجربة المقدمة على طبق من الفضة. تلك قصة لا تقرأ في كتاب. إنها تعاش فقط. وهذا ما جعلني أنصت إلى

نبـال بعمـق. البنـت النحيلـة التـي تملـك عينـين تشـبهان رفـا من الزرازير.

أتابـع قصتهـا وأراقـب مـن خـلال ذلـك تحـولاتي أنـا الآخر. التمثال كان المحرض. الكتاب ليس المصدر الوحيد للمعرفة. شكرا أيها الفنان، قلت لنفسي وأنا أتابع بفضول ما عاشته نبال في اسطنبول. فاجأها ذات يوم حضور الشرطة إلى السكن بعد أسبوع من إقامتها في الغرفة، قالت وهي ترفد فضاء الصالون بدخان سيجارتها الكثيف، وتدخل في نوبة سعال شديد أجبرها على التوقف برهة، وشرب الماء، وتنظيف فمها بمحرمة ورقية تحملها دائما، كما لاحظت سابقا، في يدها اليسار. طرقوا الباب الخارجي ودخلوا الى دهليز طويل يقع في الطابق الثاني، تنفتح عليه الغرف المؤجرة. صديقتها العراقية رفضت فكرة التفتيش ووقفت بوجه الشرطة، والشرطة طلبت تفتيش الغرف لأنها تشك بوجود رجال فيها، إذ أبلغها شخص ما من الجيران أن المكان هو وكر للدعارة. أثناء هذه المداهمة كانت نبال في الغرفة، وما أن سمعت بالخبر حتى خرجت مرعوبة وطلبت من الشرطة تفتيش غرفتها، وأرتهم جوازها وورقة التعريف من الشرطة، وأنّبت الفتاة العراقية على موقفها من رفض التفتيش. عقب رحيل الدورية سمعت الكثير من الإشاعات عن المكان وحقيقة عمل الرجل في السمسرة على النساء، وكذلك طلبه الغريب كل

مرة يأتي بعض من أصدقائه إلى المطعم بمجالستهم على الطاولة، كونها حضارية وغير محجّبة كما أوضح وبرر طلبه ذاك. كما صار يتدخل في طريقة ارتدائها للملابس، ونوعية المكياج، وتسريحة شعرها.

أرسلها مع المترجم العراقي أكثر من مرة إلى بعض الشقق القريبة لتنظيفها، بحجة أن هذا العمل يدر عليها دخلا إضافيا هي بحاجة ماسة اليه. كان اسم المنطقة هو الفاتح، أكسراي، قريبا من ميدان تقسيم، وكانت تراقب الفتيات وهن يتجهزن في الليل للخروج إلى الملاهي الليلية، برائحة مكياجهن وعطورهن السائحة في الرواق، لينزلن بضجة إلى الشارع الفرعي حيث تكون التاكسي بانتظارهن. كانت تجربة قاسية. بعد أن تركت العمل تركت السكن أيضا، وشعرت بالهزيمة والغصة التي تدفع إلى البكاء، إلا أنها في الداخل شعرت بالانتصار على نفسها، على خوفها وخنوعها. لم تلبث سوى أسبوع حتى عثرت على العمل الثاني، غاسلة صحون، وبراتب يصل إلى ألفين ومئتي ليرة تركية، وهو يعتبر راتبا جيدا إذا ما قيس برواتب العمال السوريين العاملين في إسطنبول.

يبدأ العمل في المساء، وينتهي في الساعة الواحدة ليلا، بعدها يوفر المطعم سيارة توزعهم على بيوتهم. كان الليل رعبها، فما أن ينزلها الباص قريبا من منطقة السكن حتى تتمثل لها أشباح بين الزوايا والعطفات لأشخاص يوشكون

على الانقضاض عليها، أو يهاجمونها لسلب ما لديها من نقود، أو في أسوأ الأحوال اغتصابها، رغم أن المسافة بين موقف الباص ومدخل البناية لا تتعدى مئتي متر. ويتضاعف رعبها كونها لا تعرف اللغة التركية، لذلك لا تستطيع حتى طلب المساعدة فيما لو جرى لها حادث ما. نعم كانت تجربة قاسية، تجمع الصحون، تفرغ بقايا الطعام في حاوية الزبالة جنب المغسلة، تكوّم الصحون على سطح المغسلة، وتبدأ الغسل بالصابون والماء، وفي بعض الأحيان تستخدم ليفة إزالة الدهون التي أكلت نصف بشرتها. تنشّف الصحون وتعيد توزيعها على الخزانات، وما أن ينتهي هذا العمل حتى تستقبل وجبة جديدة من الصحون الملوثة. وهكذا، يستمر العمل حتى الواحدة دون أي لحظة راحة. كان ذلك العمل براتبه المغري بارقة أمل ظلت تلوح لمخيلتها كل ساعة، وترشد روحها إلى بداية الطريق الشاق، أي صعود البحر إلى أقرب جزيرة يونانية، كما يفعل عشرات آلاف السوريين والعراقيين المتجهين نحو الغرب. تقول نبال إنها اقتنعت من خلال تجربتها السابقة، واللاحقة، أن أي رجل تلتقيه لا يفكر سوى بمضاجعتها، ويسري ذلك على الشباب والشيوخ من الأعمار كافة. أصبحت تفهم نوايا الرجل عبر حركة عينيه، وتعابير وجهه، والكلمات التي يستخدمها في الحديث معها. وهي لا تعدو أن تكون أرنبا مطاردا وسط غابة. تقول إن الجميع

يروم التهامك. وحين تعيش في هذه الغابة دون نقود تمتلئ بالإحساس أنك عالة على غيرك، وهذا ما بدأت تعيشه.

في تلك الفترة، مع أن العائلة التي تعيش بينها هي عائلة أختها، ورغم أن سام بدأ عمله في الشارع مع فرقته الموسيقية في زحمة البرد والثلج، ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل، وبدأت النقود تتدفق عليهم، لكن لم يفارقها شعور أنها زائدة في حياة هذه العائلة، وينبغي لها البحث عن حل لوضعها برمته. ثم قفزت نبال إلى ذلك الصباح السعيد، حين وجدت نفسها في قافلة تتألف من سيارات ثلاث تتجه إلى البحر. ومر الوقت دون أن يحس به أحد، وكان القلق والسرحان والخوف مستولية على الوجوه كلها. ساعات غير محسوبة من الزمن، في بلد لا يعرف جغرافيته أحد. وانتهت الرحلة بمكان يشبه القرية فيها فندق وحيد استقبلهم لمدة ثلاثة أيام. أكثر من أربعين لاجئا اكتظت بهم غرف الفندق وصالاته، وعند الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل أيقظوهم من النوم برغم أن قليلا منهم استطاع النوم، وأركبوهم في السيارات ذاتها ثم رحلوا باتجاه أقرب نقطة للبحر. حلم ليس أكثر، تتأمل نبال في ما رأته وسمعته من سحنات وطرق وجبال ووديان ولغات، ولا بد أن تستيقظ من نومها لتجد روحها في دمشق. أولادها تستحضرهم ذاكرتها في زحمة ما تعيشه وكأنهم جاءوا من أزمان أخرى، إلا أن التأمل في الماضي ما عاد مجديا. نزلوا في أرض شوكية، ثم مشوا نحو رائحة البحر والسمك

والامتداد الفسيح للأزرق، وعلى الساحل أدخلوهم في خرابة وانتظروا. جلب شخص ما "البلم" ونفخه حتى استوى على الماء، كما جلبوا دواليب مطاطية نفخوها هي الأخرى، ووزعوا ستر النجاة. الغريب أن بعض الدواليب كانت مثقوبة فيما تم بيعها لهم على أنها جديدة، وهذا مظهر من مظاهر النصب والاحتيال التي ستعيشها نبال لاحقا، وعاشتها سابقا في رحلة الجحيم تلك.

ما حكته نبال في ليلة واحدة يكاد أن يغطي أحداث سنوات في حياة شخص بسيط مثلها. سرعة الأحداث تضغط الزمن بشكل غير منطقي، وكنت أنا منشدًّا إلى حكاياتها، وفكرت أن الآخرين سمعوا هذه الأحداث أكثر من مرة، فسام لم يكف عن اللعب على أوتار غيتاره، والأولاد يرتفع ضجيجهم في الغرفة، ولميس تعد القهوة العربية وتقدم المكسّرات على الطاولة المركونة أمام الأريكة. هذه هي التجربة دون قشور. تقدم نفسها دون رتوش. وفكرت أن سماع الحكايات من فم الضحايا مباشرة تفوق المعرفة النظرية التي يقدمها أي كتاب عما حصل للملايين منذ اندلاع الأحداث في سوريا. شربنا القهوة العربية المضمّخة بالهيل، ودخنّا السجائر، وسمعنا مقطوعة لأغنية تراثية تعود إلى البيئة الحلبية، كان سام قد اعتاد عزفها مع فرقته دامسك في شارع تقسيم، ولاحظت خفوت صوت الأولاد في غرفتهم وفكرت أنهم ناموا ربما. وبسبب هدأة

ليل لوفان كنا نسمع صوت القطارات الخافت وهي تنطلق من المحطة أو تصل إليها، ثم جلسنا باسترخاء نصغي إلى نبال. نبال التي حشرت ذات يوم في قارب صغير مع العشرات غيرها كما يحشر السردين.

ودّعهم المهرب وتركهم إلى أقدارهم، بعد أن أشار إلى الماء البعيد وقال لهم بصوت يقترب من السخرية: تلك هي اليونان، برغم أنهم لم يروا في الأفق سوى اللون الأزرق، وتلك الأمواج الصغيرة البيضاء وهي تتراقص أينما مد المرء أنظاره. استلم القياد شاب في الخامسة والعشرين، شغل المحرك وانطلق بهم القارب نحو الغرب، والغرب لا يعدو أن يكون جهة افتراضية فقط، فالمياه تحيط بهم من كل جانب. غاب الشاطئ، غابت الأرض، لا نوارس في الفضاء، وبدا القارب وكأنه لا يتحرك من مكانه، فالمياه هي المياه، والأمواج ذاتها لها الشكل نفسه، وذلك البياض المعشي للنظر. خرجت نبال في رحلتها عند انتصاف الشهر الثالث من السنة، والمطر ما زال زائرا مألوفا، والريح تميل إلى البرودة وتدفع بماء البحر نحو السماء كي تحولها إلى موجات غاضبة، تؤرجح قاربهم يمينا وشمالا، وتضخ الرعب في القلوب كلما علا الموج. في غمرة الرعب تكفل رجل كبير السن بطمأنة الراكبين، مرة بطلب المساعدة من رب السماء، ومرة بتهوين المخاطر والاستهانة بها. يشير إلى جهة الغرب كل دقيقة ثم يصيح أوشكنا أن

نصل، وهذا الصوت العميق، والواثق، ومن رجل يقترب من الستين، تقول نبال وعيناها السوداوان تشعان بحرارة التجربة المرة المتلبسة لها حتى اللحظة كما جزمت مع نفسي، أضفى الهدوء على ركاب القارب ودعاهم للصمت. جلسوا في أماكنهم بدون صوت، هم فقط عيون تنظر برعب إلى الموج المرتفع والسماء الغاضبة.

من بين ذلك الهدوء المخادع، ورعب الغرق في قاع البحر، وانجلاء الغيوم شيئا فشيئا، لاحت للعيون المستطلعة، المحدقة دائما نحو الغرب، كتلة بنيّة صغيرة راحت تكبر قليلا قليلا. هتف الجميع قائلين: ها هي الجزيرة، لقد نجونا، لكنه كان تفاؤلا كاذبا، ففي لحظة غامضة انطفأ المحرك، وهتف السائق برعب لقد نفد الوقود. وكانت أجنحة الموت ترفرف فوق الرؤوس، وشعر الجميع بالأسف لأن المسافة إلى الجزيرة لا تتعدى ربع ساعة بالقارب. وعلى حين غرة أطبق الضباب ثانية، وأحست نبال لأول مرة بأنها لن تصل إلى الجنة، وأن قدرها يعاندها كما فعل قبلئذ في كل شيء قامت به في حياتها، ابتداء من الزواج، ثم التنافر بينها وبين زوجها، وحتى الطلاق وبعدها عن الأولاد. ما حلمت به طويلا تبدد بلحظة سهو غبية سواء من المهرب أو منهم حين وثقوا بالمهربين دون تفحص أدوات الرحلة بشكل دقيق. لكن من بين هذه العلامات الدالة على الموت تناهى إلى أسماع الجميع فجأة

هدير بعيد، تكشّف عن مركب ضخم لخفر السواحل اليونانية، كان يحوم حولهم، فارتفعت الأيادي بالاستغاثة، والأصوات بالصراخ والعويل باللغات التركية والعربية والانكليزية، ولوّح البعض بملابس حمراء كي تسهّل على الشرطة رؤيتهم. قالت نبال: آمنت في حينها أن معجزة قد حدثت. معجزة حققتها دموع الأطفال واستغاثتهم وهم يرون الرعب في وجوه آبائهم، واليأس الذي حلّق مثل النوارس على المركب. معجزة حقا لا تتم إلا كل قرن مرة. وحين راح المركب يدنو خفف من سرعته ربما لخشية الطاقم من انقلاب القارب بسبب الموج الذي يسببه المركب، وشعروا بأن الأشخاص الذين يستقلون المركب شملوهم بعطفهم لذلك فكروا بهذه الخطة للاقتراب منهم وانقاذهم. على بعد أمتار قليلة من المركب ألقوا بحبال إلى الراكبين وطلبوا منهم التمسك بها جيدا، ثم اتجه المركب نحو الجزيرة بهدوء. ولم تمض سوى عشرين دقيقة حتى وجدوا أرواحهم على الساحل. جزيرة "كيوس"، التي ستخلد في رؤوسهم حتى اليوم الأخير من حياتهم.

تأملوا بالصخور العملاقة، بالحافات الصخرية، بطيور الجزيرة غريبة الأصوات، بالناس الفضوليين تجمعوا على الساحل. لقد عادوا إلى الحياة بفعل معجزة. وكانوا أشبه بنمل دهمه السيل، ثم فجأة وجد حشده على اليابسة. وكانت المياه تقطر من الملابس، والبرد ينخر العظام،

والذهـول يطفـو عـلى الوجـوه، والعيـون ترنـو بالشـكر إلى طاقـم الشرطـة وعنـاصر الأمـم المتحـدة المختصـين بمسـاعدة اللاجئين. تلقفوهـم مـن القـارب مثـل أطفـال ذاهلـين. وزعـوا عليهـم الملابـس الناشـفة والبطانيـات والطعـام والسـجائر، مما دعـا البعـض إلى الجلـوس عـلى الصخـور مثـل طيـور البطريـق، وهـم يخوضـون في لجـة بـكاء حـار. ولم يعرفـوا هـم أنفسـهم، حينهـا، إن كان بـكاء فـرح ونجـاة، أم بـكاء أسـف عـلى مغـادرة تلك القارة اللعينة.

هنا وهناك

وأنا أسمع بوح نبال، وأراقب حركات يديها المرتجفتين، والدخان الكثيف الخارج من بين شفتيها المصبوغتين بالروج الكثيف، فكرت أن كل حكاية يمكن روايتها بطريقتين، وهذا ما دأب البشر عليه منذ زمن طويل. هناك الرؤية المجهرية في رواية الحدث، بحيث لا تترك تفصيلا يتعلق بالحكاية إلا وتورده، فكل تفصيل يشي بمعلومة ما، أو يضيء مجمل الحدث. وهناك الرؤية التلسكوبية التي لا تعير كثير أهمية للتفاصيل، بل تخفي، وتختصر، وتكثّف الأحداث في الزمان والمكان. وهذا ما تقوم به نبال. على سبيل المثال حياتها في الغرفة التي استأجرها لها صاحب المطعم، بين فتيات ونساء مشبوهات، وكيف فضّلت الابتعاد عن بيت أختها، فهل كانت تلك التفصيلة قد تجاوزتها عمدا؟ كيف جمعت النقود لدفعها للمهرب الذي قادها إلى جزر اليونان؟ من النادر جدا المواءمة بين الرؤية المجهرية والرؤية التلسكوبية للأحداث، ولا يتوفر الأمر إلا لأشخاص نادرين قد يكون الكتاب المبدعون من بينهم،

خاصة ممن يكتبون قصة أو رواية ناجحة. وفي الوقت ذاته، اقتنعت أن كل شخص وصل إلى أوروبا سواء كان سوريا، أو عراقيا، أو إيرانيا، أو لبنانيا، أو إفريقيا، أو غيرهم من الأقوام المهاجرة، يعتل خلفه دون شك قصة غريبة عاشها، ومغامرات أقدم عليها بشجاعة. فالانتقال إلى قارة ثانية على هذه الأرض لا يتوفر إلا لأشخاص بعينهم. أشخاص تساوت لديهم فكرة الموت والحياة، الحرية والسجن، الطمأنينة والقلق. أشخاص يجرؤون على قطع الأواصر بينهم وبين مكان الولادة بضربة فائقة الشدة. كل حكاية تتذكرها نبال تنتخب منها ما ترويه لنا.

قطعة من الجحيم تلك، قالت بنبرة حادة وهي تطفئ سيجارتها وتتناول أخرى جديدة. قطعة جحيم لكنها لم تجبرها على الالتفات إلى الخلف أبدا. تتصاعد من المكان روائح كريهة، والحمامات غرف من البلاستيك مؤقتة التثبيت جلبتها الأمم المتحدة ووضعتها على أطراف المخيم، ووزعت بطانيات للوافدين الجدد، بطانيات عتيقة تنث رائحة عطن وأجساد وعرق سابق، ولم يكن هناك كهرباء في المخيم ولا مياه ساخنة. وإذا ما أراد الشخص الاستحمام عليه أن يجلب الحطب، ويشعل نارا، ثم يسخن المياه بالقدور والسطول. كما لاحظت عدم وجود وحدة طبية، وفكّرت في تلك الجزيرة الموحشة بما تصنعه امرأة أصيبت فجأة بنزيف أو مرض مفاجئ، حكة أو وباء

طارئ. اكتظاظ المكان، وسرعة توافد البشر، لم يضع مثل هذه الأسئلة أمام السلطات اليونانية أو منظمات الأمم المتحدة العاملة في المخيم. الحسنة الوحيدة لتلك المنظمات أنها وفرت نقطة كهرباء يمكن للاجئين شحن موبايلاتهم فيها مما يربطهم بمعارفهم البعيدين، وأهلهم، وعوائلهم المشتتين في الدول، وبين القارات. فتلفون واحد يمكن أن ينقذ حياة عائلة أو شخص وذلك بإرسال النقود عن طريق "الويسترن يونين".

سوريون، عراقيون، أفغان. لافتات، إضرابات. والشرطة تحدق بهم من خلف الأسلاك الشائكة والبوابة المغلقة، بوابة الأمل، يرمقون البشر بعيون كارهة. ويمسكون كلابهم المرعبة التي تكشف عيونها هي أيضاً عن مشاعر متوحشة تعبر الأسلاك نحو ذلك الجمع من الأطفال، والنساء، والشباب، والشيوخ الذين لم يكف حلمهم عن فتح البوابة ولا ثانية واحدة، نهارا وليلا، وسط شائعات تتصاعد وتخفت تبعا للمزاج العام وحركة الشرطة على جانب الحدود، والأخبار القادمة من الراديوهات الصغيرة التي يمتلك بعضها عدد محدود من اللاجئين، وكذلك الشائعات المتسربة من خيم الأمم المتحدة والمنظمات الإنسانية المنتشرة في الجزيرة المسماة "آندوميني". شهدت نبال عودة بعض اللاجئين المتسللين عبر الأسلاك الشائكة، وقد أشبعوا ضربا من الشرطة

المقدونية. وكانوا يروون قصصا لا تصدق عن المعاملة غير الإنسانية التي لاقوها منهم. كانت تنام في خيمة كبيرة، وتقضي يومها بين الركض خلف الطعام، وتسخين المياه، والحمامات، والتدخين. مع شعور عميق بالوحدة والغربة، وهي ترى رجالا ملتحين يمطرون النساء السافرات بنظرات متوحشة. تشهد المعارك اليومية بين تكتلات اللاجئين وقد انتظمت حسب المدينة والقومية والمذهب، وتسمع الحوارات الحادة وهي تتحول بعض الأحيان إلى مشاجرات بالأيدي، تقود إلى جروح وكسور وتكاد تؤدي إلى الموت. كانت تفكر أنها في غابة، وغابة مسورة بالأسلاك، ولا تعرف ما الذي تسفر عنه هذه الأيام الجديدة على حياتها. تمتلئ بياس مطبق. تجد نفسها بين هذا الوسط المتنوع في الدول، والعقول، واللغات، والأفكار. هي على المحك.

في الظروف الحالكة المدلهمة مثل ليل شتائي، لا ينقذ المرء إلا الصمت. وقررت مع نفسها أن تعتصم بالصمت، لا تدلي برأي، لا تنحاز، لا تناقش، تسمع فقط وترى ما يجري حولها بعينين متوفزتين دوما، وتتحمل فوق كل ذلك الرائحة الكريهة في المخيم وشبهتها مع نفسها برائحة هذه الأزمان التي تعيشها من حروب، وهجرات، وقتل، وخيانات، وانهيارات لا أخلاقية. تبيت بعض الليالي جائعة بعد أن تتجاهل الخروج إلى عربة الطعام تفاديا للوقوف

وسط الحشود. رؤية المجازر المعنوية المتعلقة بالطعام حدا بها كي تقصر طعامها على الخبز والجبنة. ثلاث وجبات يوميا وطعامها الخبز والجبن فقط، حتى تحولت إلى شبح. ونزل وزنها فبلغ خمسا وأربعين كيلوغرام. وذات يوم حصلت على طبق من البيض فاعتبرته هدية هابطة من السماء، رغم أن وضع التقشف هذا لا يشمل جميع اللاجئين، فهناك من ينزل بعض الأيام إلى "سالونيك" ويستمتع بتناول الطعام واحتساء الخمور، أو شراء ملابس جديدة. وتحول البعض إلى تجار. يجلبون البضاعة من سالونيك ويبيعونها بسعر أغلى إلى اللاجئين. دخان مهرب، وحشيشة، وخمور، وسمعت مرة أن البعض يتسلل حتى إلى المدن المقدونية لتهريب الدخان الرديء وجلب البضاعة.

ومرت أيام الصيف سريعا، غابت السنونو من السماء، وعبرت الغيوم في الأفق، وبدأ الشتاء يهجم على المخيم بمطره، وعتمته، وبرده. غابت القاهرة من خيالها. ماتت دمشق خلف البحار. في هذه الأثناء عرفت بوجود جانب آخر لهؤلاء الهاربين من بلدانهم، جانب السقوط الأخلاقي والتوحش، بعد أن زالت القيود الاجتماعية، والقوانين، والسلطات القامعة. الغربة محك يزيل الصدأ عن معدن البشر. معدن بشع، وآخر مشع مثل جوهرة، وثالث هلامي يصعب تخمين شكله. هناك البعض ممن يرغب في الوصول إلى دولة بعينها لوجود زوجته أو زوجها أو واحد

من الأقارب. ولاحظت أن حضور المنظمات الأجنبية صار أكبر. أوروبيون يدخلون الخيم ويسألون عن احتياجات اللاجئين، ويوزعون بعض الأحيان مبالغ مالية بسيطة للمحتاجين من التبرعات التي يتلقونها. تحسن الوضع الشخصي قليلا في بعض جوانبه لكن المشكلة ظلت باقية. عدم اليقين بالمستقبل. هل يوطّنونها في اليونان، أم تنتظر توزيع القوائم على بلدان الاتحاد الأوروبي، أم تفكر بالهروب عبر حدود ما نحو دولة ثانية؟ هذا المصير المجهول حرمها من النوم أغلب الليالي.

- تحولنا في الحقيقة إلى ورطة، تقول نبال مطلقة ضحكة هستيرية ملوثة بالدخان. أصبحنا مثل جمرة حارقة بين أيدي الدول. تركيا تقذفنا إلى اليونان، واليونان تقذفنا إلى مقدونيا، ومقدونيا إلى بلغاريا وهنغاريا وسلوفاكيا وألمانيا، وإلى ما لا أعرف من الدول. شاهدتم بالتأكيد كيف أصبحنا خبرا عالميا أول في الفضائيات، والصحف، والإذاعات. بمعاناة ملايين اللاجئين استطعنا أن نلوّن وجه القرن الواحد والعشرين بالأسود الحزين. ولن ينجح أحد في التنكر لهذه المأساة لا اليوم، ولا غدا، ولا بعد قرن.

هكذا لخصّت نبال أحاسيسها عن "مأساة القرن" كما تسميها. كان هناك أشخاص لا ينامون الليل، يقضونه في

لعب الورق أو السكر أو التحشيش، في تجمعات صغيرة تظل أصواتها تتردد في الفضاء حتى طلوع الضوء. وتسمع الأغاني بمختلف اللغات، دبكات مرتجلة، وحوادث غريبة يقوم بها أشخاص فقدوا كل أخلاق. كانت أقرب قرية إلى الكامب تبعد حوالي نصف ساعة في السيارة، ويمر بظهر الكامب طريق ترابي يربط المكان بتلك القرية، وكان منفذا للبعض للذهاب إلى القرية للتسوق. وذات مساء حدثت حادثة مروعة ستتذكرها نبال طوال حياتها. خرجت امرأة مع طفلها البالغ أربع سنوات للتنزه على طرف المخيم، وكان الظلام يتكاثف على الطريق الترابي المحاذي للسياج. في الصيف تتصاعد الحرارة الخانقة داخل الخيم، وفي القاعات، فيضطر الناس إلى الخروج للنزهة. وكانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف ليلا، وفي هذه اللحظة جاءت سيارة مسرعة بشكل غير طبيعي، سيارة تاكسي مطفأة الأضواء، لم تستطع المرأة رؤيتها، ولم تستطع تفاديها لأنها ظهرت فجأة. وجدت المرأة نفسها محصورة بين حافة الطريق والسياج والسيارة. لسبب لم يعرفه أحد مالت إليها كما لو كانت تتقصدها، فلصقها الاصطدام بالسياج الحديدي، هي وابنها، وحين خرج الجميع على صوت الارتطام رأت نبال اللحم الملتصق بالسياج. كفت عن الأكل لمدة أسبوع. تلك الأم المسماة "حميدة" ، ومقتلها هي وابنها، ظلت مدار الحديث في المخيم طوال أسابيع.

ثـم جـاءت "مارثـا" ، وكانـت واحـدة مـن الاسـبانيات التابعـات لمنظمـة انسـانية تقـوم بمسـاعدة اللاجئـين تطوعـا. مارثـا ناشـطة أساسـية في تلـك المنظمـة. تعـرف العربيـة قليـلا كونهـا درسـت في دمشـق، وكانـت صديقـة لشـاعر سـوري لم تعـد تتذكـر اسـمه. تلـك الليلـة أبدعـت نبـال بصنـع التبولـة والمسـبحة والبطاطـا المقليـة، وعملـت سـلطة الخيـار مـع الطماطـم والجـزر عـلى هيئـة لوحـة فنيـة تشـبع البـصر قبـل الفـم. ولأنهـا استلمت حوالـة مـن أختهـا "لميـس" القاطنـة في لوفـان، قدّمـت لهـم فروجـا مقليـا مـع مرقـة البصـل، وجنـب كل ذلـك صحـون مـن الـرز. قضـت نهارهـا في تجهيـز تلـك الوجبـة، ثـم جلسـت جنـب الفتيـات متأملـة باسـمة الوجـه، تتلـذذ باسـتمتاعهن بالوجبـة، وتتلقـى ثناءهـن عـن طريـق المترجـم كونهـا لا تعـرف الانكليزيـة. مارثـا أثنـت عليهـا بالعربيـة القليلـة التـي تتكلـم بهـا، وشـعرت مـن خـلال نظراتهـا أنهـا عزمـت عـلى مسـاعدتها بـأي ثمـن. ومنـذ تلـك الليلـة، وبعـد أن اطلعـن عـلى ظروفهـا الصعبـة، ظـروف امـرأة لا تـزن أكثـر مـن خمسـين كيلوغرامـا، وتسـعل بخجـل، ولا تكـف عـن حشـو رئتيهـا بدخـان التبـغ الثقيـل، بـدأ تعاطـف تلـك المنظمـة مـع نبـال. وراحـت الاسـبانيات يفكـرن بطريقـة جديـدة لإيصالهـا إلى أختهـا المقيمـة في مدينـة لوفـان البلجيكيـة. الاسـبانيات كـن يقمـن أسـابيع أو أقـل في المخيـم ثـم يرحلـن، لكنهـن كلـما جئـن المخيـم يقمـن مـع نبـال، أو يقضـين وقتـا

طويلا معها ومع المترجم، حيث كان الوسيط الذي ينقل مساعدات تلك المنظمة إلى اللاجئين. روت لهن قصصا من حياتها مع زوجها، والمعاملة العنيفة التي كان يعاملها بها، وقرارها في طلب الطلاق والبحث عن حياة ثانية حتى لو تطلب ذلك منها ركوب مغامرة مميتة. ومن خلال دموعها أوصلت لهن مشاعر الرعب التي تعيش معها خوفا على أولادها خاصة ابنها الجندي. تعاطفن كثيرا معها وقررن إخراجها من اليونان بأي طريقة كانت.

طرحن عليها في البداية فكرة إرسال عقد عمل إسباني يمكّنها من الحصول على فيزا شرعية للدخول إلى إسبانيا والاقامة في مدريد، ومن هناك يمكن نقلها بسهولة إلى بروكسل. حاولن في الأمر لمدة شهر لكنهن فشلن في ذلك، إلا أنهن لم يستسلمن لليأس. وفي نهاية الحديث صمتت نبال، وفكرت بحذر ارتسم على بشرتها الناعمة، ووجهت نظراتها الحادة إلى المكان الذي أجلس فيه تحت الشباك، وقالت لي بصوت مرتعش:

- سأخبرك في المرة القادمة عن مغامرتي في الوصول إلى هذه المدينة. أجل، وصلت بجسد مكبّل بالعلل والأمراض النفسية، وعندي حدس عال بأنني لن أعيش طويلا، ودفعت ثمن الوصول إلى هذه الواحة من روحي وجسدي. وكانت الرحلة مجدية مع ذلك.

استطعت تحطيم حاجز الخوف، وأشعر بأنني حرة. وبأنني قوية برغم المرض. استطعت بفترة قياسية جلب ولدي ميّار من ذلك الجحيم. ومن الطريف أنه نجح في اجتياز الرحلة من بيروت إلى مطار بروكسل، مرورا بإسطنبول، لوحده لكنه نام بعدها يومين كاملين، وحين استيقظ لم يكن يصدق وجوده في هذه المدينة. كان يسأل عن كل ما تقع عليه عيناه. يسأل مستفسرا عن واجهات الكنائس العملاقة، عن البرج، عن القناة، المتنزهات، الألعاب، نظام الباصات، الفتيات وكلهن جميلات، أشكال البشر ولم لهم شعور شقر وعيون زرق، ولماذا جئنا إلى هنا. سنة مرت عليه حتى استوعب وجوده في لوفان، وعليه مستقبلا أن يصنع الطريق لوحده، والخيارات في هذا المكان لا تعد ولا تحصى. عكس ما كنا نعيشه في أرض الحروب والموت.

أكملنا السهرة على وقع أنغام الغيتار، يخرجها سام بتلاعب ماهر على الأوتار، كما لو كان يستعيد أيام شارع الاستقلال وذكريات ساحة تقسيم في اسطنبول: فغنّت لميس مرافقة لعود سام أغنية فيروز "يا حمام يا مروح بلدك متهنّي/ خليني أنوّح وانت اللي اتغني"، وكما أتذكر فهي

من كلمات فتحي قورة وألحان حليم الرومي وغنتها فيروز بعمر ست عشرة سنة، وكنا نردد الكلمات مرة وثانية، وثالثة، وأطفأنا ضوء الصالون، واكتفينا بأضواء الشارع المتسللة من النوافذ، وأبصرت برغم الغبش الخفيف دموعا على خديّ نبال. وبعد هنيهة صمت ومجاملة لي غنينا أغنية "يا طيور الطايرة" التي لحنها كوكب حمزة، وكان الغناء جماعيا هذه المرة. غنينا حتى تعبت حناجرنا ولفّع الحزن قلوبنا. ثم رحنا بعد ذلك نتناوب الحديث عن لوفان، وما يخططون للقيام به في السنوات القادمة.

وبين لحظة وأخرى تروي لنا لميس يومياتها في القاهرة، أو تداعيات وحدتها حين عاشت في اسطنبول بعد سفر سام إلى اليونان. وكان الجو مشحونا بالذكريات والحزن والموسيقى، وكان الليل مثل كهف مظلم لا نعرف ما يحدث في دهاليزه.

وفي صباح اليوم التالي حدثت مرتضى عن كل ما سمعته من تلك العائلة.

أبدى حزنه العميق على سوريا كلها. تذكرناها بأسى غطّى بكثافته أشجار الغابة، وصليب الكنيسة، حتى فاض نحو السماء. وكنا في أثناء ذلك نجتاز الغابة القريبة في جولة وسط الطبيعة العذراء، المزدهية بأشعة الصيف. مشينا في طريق ضيق يخترق أشجار السرو، والسنط، والنباتات العالية. وكانت الغابة هي المكان المفضل للترويح

عن الجسد والروح من تعب الرسم والسباحة في أمواج اللون، يخبرني مرتضى وهو يتشمم رائحة الجذور. ويدقق بتكوير الغصون. يداعب بأصابعه العفن الأخضر المنتفخ في سيقان السرو. كان يطيل التحديق ببقع الضوء الساقطة على الأرض من بين فتحات الشجر، وهي تتماوج على الورق اليابس مثل لوحة فنية لرسام مجهول. يقوم بكل ذلك متسلحا بخبرة له في السكن قرب الغابة امتدت سنوات، منذ أن قرر الاعتزال في أطراف لوفان. وحين دخلنا في درب ضيق بين أشجار السرو الكثيفة، وبعد فترة صمت قصيرة، لم نسمع سوى شدو طيور بين قمم الشجر وخلل الغصون، سألت مرتضى سؤالا ظل يخطر في ذهني منذ وصولي:

- يبدو أنك أحببت هذه المدينة؟ هل ثمة سر وراء ذلك؟
- فعلا أحسست بها مثل أم حنون منذ أن رأيتها. قد يكمن السر في تقدمي بالعمر، وخفوت جذوة التمرد. توصلت إلى أن الحكمة من وجودي اليوم هو الاستقرار، وربما الموت بهدوء في هذه الأرض. والأرض متشابهة عندما يموت الانسان.
- كيف منحتك لوفان هذا الإحساس برغم أنها صغيرة؟

- ربما بسبب تكوينها الدائري، فأنت حين تتجول بها تدور وتلفّ ثم تجد نفسك في القلب دائما. هي تشبه الأم بطريقة ما. ولا تستغرب القصص التي تدور في بيوتها وأزقتها.
- لقد منحتني هذا الإحساس ليلة أمس أثناء عبوري الجسر متجها إليك.
- لا بد أنك سمعت بالقول المأثور، هناك بلجيكا لكن ليس هناك بلجيكيون. تجد الفرنسي والهولندي والألماني، ولاحقا المغربي والعراقي والإيراني، ثم في هذه السنوات وفد إليها السوريون. على ضوء هذه الحقيقة خفت إحساس الغربة لدي. أظن أن أصدقاءك السوريين سيعيشون تلك المشاعر ذات يوم.

بعد رجوعنا من الجولة السريعة في الغابة، ووقوفنا بجانب الكنيسة المقابلة للصالون، قال مواصلا كلامه عن التمثال الذي كان سببا للقائي بعائلة سام: كنت أجلس مع نصير قرب التمثال ذاته، وكأن العالم ملكنا لوحدنا، وكأن مدينة لوفان اختفت من الخارطة، وكنا نثرثر عن خيباتنا وجدواها في هذه المدينة، وحياتنا الرتيبة، وجدوى الحنين والشوق والتفكير بالبلد البعيد، وما يجري في ذلك الشرق الموبوء بالعنف والضياع. كان معجبا هو أيضاً برموز

التمثـال، ومـا يبعثـه في النفـس مـن تأمـلات. لقـد توصـل مثلـك إلى حقيقـة أن المعرفـة ليـس بالـضرورة أن تـأتي مـن الكتـب. أحيانـا تصبـح التجربـة خـير منجـم للمعرفـة. ازداد هـذا الهاجـس لديـه بعـد أن طلـق زوجتـه البلجيكيـة، حيـث بقـي طفلـه معهـا، وسـكن لوحـده، في البـدء بشـقة صغـيرة ثـم في السـكن الطـلابي، وبعدهـا في شـقة قريبـة مـن المحطـة. كان أكمـل دراسـته في الجامعـة الكاثوليكيـة في الفلسـفة، وموقعهـا قريب من تمثال المعرفة. وجاءت أطروحته عن اليوتوبيا.

- تخيّـل. جلـس يحـاور بدايـات القـرن الواحـد والعشريـن حائـرا، مـترددا، يبحـث عـن خيـارات. وصـادف أن يكـون الأمـر متزامنـا مـع احتـلال العـراق، وزوال سـلطة صـدام حسـين وحزبـه. وجـد أن الطريـق صـار سـالكا لتحقيـق قناعاتـه في أنـه ينبغـي عليـه أن يغـادر بـرزخ النظريـة إلى بـرزخ الفعـل، بـرزخ اليوتوبيـا إلى بـرزخ الواقـع المجبـول مـن طـين، وعفـن، ودم، ومـاء، وكل الميـول البشريـة، خيّرهـا وشريرهـا. لديـه رسـالة تنويريـة عليـه إنجازهـا. عليـه إعـادة اللحمـة بينـه، هـو ومعارفـه، مـع الوطـن. ينبغـي الذهـاب إلى هنـاك بـأي ثمـن. كانـت أوضـاع العـراق عـلى كـف عفريـت. صورتـه غائمـة. وثمـة شيء يغـلي لكـن لا أحـد يعـرف مـا هـي

الطبخة المعدة للمائدة. مئات آلاف الجنود الأجانب، سلطة غائبة، تفجيرات، عصابات، فوضى. آمال وخيبات. تتبادلان الأدوار أحيانا في دخيلة الشخص نفسه.

بعد سنتين من العودة، كتب يؤبّن نفسه ويشرح مسوغ رجوعه قائلا، ثم نهض مرتضى وجلب الجريدة التي كتب بها ذلك المقال، وقال لي اقرأ، فقرأت: عدت إلى العراق قبل عامين، تاركاً ورائي قرابة خمسة وعشرين عاماً من الهجرة القسرية. تلك العودة إلى ما حسبته ملاذي الآخر أو الأخير، عللتها لنفسي بأن فصلاً من حياتي صار ماضياً ينبغي طيّه فطويته، وأن فصلاً آخر قد فتح احتمالاته، على مصراعيها، أمامي فاستجبت إليه. الموت في مدينة كبغداد يسعى إلى الناس مع كل خطوة يخطونها، فيما تتواصل الحياة مذعورة منه أحياناً، ولا مبالية إزاءه في أغلب الأحيان. ما أكثر لافتات الموت السوداء في المدينة؟ كم من الناس واسيت بفقدان أب أو ابن أو أخ أو قريب! كم مرة قصدت مجالس التأبين معزياً! كم مرة وجدت نفسي عاجزاً عن إظهار تعاطفي مع ذوي الضحايا البريئة المجهولة لي! كم بكيت في سري حزناً على مشاهد الدماء المسفوكة في كل مكان! بعد هذا الانغمار المكثف في وقائع الموت وأخباره، يسألني البعض أحياناً، ألا تخاف من الموت؟ فأجيب، أنا الوافد أخيراً إلى دوامة العنف المستشري، أعلم أنني قد

أكـون هدفـاً لقتلـة لا أعرفهـم ولا أظنهـم يبغـون ثـأراً شـخصياً منـي، وأعلـم أننـي أخشـى بغريـزتي الإنسـانية لحظـة المـوت حين تـأتي بالطريقـة الشـنيعة التـي تـأتي بهـا، وأعلـم أننـي قبـل ذلـك كلـه كثـير القلـق عـلى مصـير أخـي ومرافقـيّ الذيـن بملازمتهـم لي في سـكوني وحركتـي يجازفـون بحياتهـم وحيـاة عوائلهـم. وكتـب أيضـا: وعـليّ أن أعـترف أننـي لم أكـن غـير مكـترث بالمـوت دائـماً. الوطـن محطـة في حيـاة الإنسـان تتفـرع منهـا جميـع المحطـات الأخـرى التـي قـد تـؤدي إليهـا أو لا تـؤدي، لكنهـا تحكمنـا، بقـوة شـبه قدريـة، بـأن نظـل متعلقـين بهـا رمزيـاً حتـى لـو هجرناهـا فعليـاً، أن نظـل مشـدودين إليهـا بقرابـة دم حتـى لـو أودعنـا مصائرنـا خارجهـا. ليس في عـودتي مـن المنفـى نكـوص نحـو المـاضي، وإذا كانـت هنـاك عـودة بالنسـبة لي فهـي مغـادرة تجربـة اسـتنفدت نفسـها تدريجيـاً، كسر شرط حيـاتي غـدا عاديـاً بغيـة اكتشـاف مـا هـو غـير مألـوف أو مضمـون. عـدت إلى العـراق قبـل عامـين، لأدرك أننـي بلغـت غايـة مـا صبـوت إليـه: إنهـاء شـعوري بالسـأم مـن الاكتفـاء بعـدّ سـنوات الهجـرة، مـن البقـاء بعيـداً عـن وطـن طالمـا تخيلتـه جميـلاً وأنيسـاً رغـم جنونـه وقسـوته، ونـزع ثـوب الغربـة عـن نفسـي لأرى الواقـع كـما هـو عاريـاً مـن أغلفتـه وبريقـه. عـدت إليـه فوجدتـه يمـضي في متاهـة تاريخيـة لا يمكنهـا أن تكـون إلا مؤقتـة. وأنـا أحـد شـهودها: أعيـش تذبذباتهـا، أراقـب تقلباتهـا، أتفاعـل مـع تفاصيلهـا، وأثـير أسـئلة حولهـا، وأراجـع قناعـات

بشأنها، وأكوّن أحكاماً عنها. أنني منغمر بتجربة غيّرت حساسيتي إزاء كل ما يحيط بي. فما عادت تستوقفني كثيراً الأفكار المسبقة والمقارنات الجاهزة والرغبات التي تعظ بما ينبغي أن تكون عليه حالة الأشياء. كل ما أبحث عنه وسط هذا الضجيج الزائف هو الهدوء، الصدق، ورفعة الشأن العام. العراق فتح ذهني وقلبي لسطوة الحاجة الآسرة القاسية على ناسه. وهو، كما يبدو لي الآن، حالة مثالية لفهم ما يجري في العالم بأسره. فلأنه بلغ القاع صار يتيح، بشكل أفضل، رؤية منابع الحروب والهمجية والمصالح الأنانية، الكذب والفساد والعنف والنسيان المتعمد للحقيقة أو السهو عنها. عدت إلى العراق بعدما اكتشفت أنني شخص دون مشروع خاص. في السياسة كما في الثقافة مشروعي مرتبط بالجماعة، فلا فعل ولا حضور من دون مشاركة وتضامن. عدت من المنفى وأنا مدرك أن لا عودة لي منه لأنه يجدّد نفسه في كل تماس مع ما هو مألوف أو غير مألوف. وسوف تلازمني أشباحه كما لازمتني أشباح الوطن. كل رجوع عن المنفى تعميق لجذوره وإيهام بخفاياه.

الليل الفلامنكي

كنـا نجلـس صامتـين، وكأن اللغـة لم تعـد تمتلـك قـوة التعبير لتصف ما باح به صديقنا المشترك "نصير". ولقطع الصمت الثقيل، نهض مرتضى من كرسيه واستل الجريدة من بين يديّ، ثم نظر نظرة ألم عميق وقال بصوت راعش: تعرف ماذا حصل بعد ذلك. وكنت أجلس على كرسي قرب شباك الصالون يطل على مبنى الكنيسة، الكنيسة الضخمة بسقوفها المخروطية وواجهاتها المتعددة المصبوغة باللون الأبيض. ويستطيع المشاهد رؤية القدم في نمط بنائها المنتمي إلى قرون سابقة. تفتنني الكنائس منذ وقت طويل. الأبنية هنا تعكس روح الحضارة. ومرتضى يقف وسط الصالون، يمتص كأسا من النبيذ من دون أن تفارق سيجارة توسكانو شفتيه. وضع طاولة في الزاوية تحمل علب الألوان، وتتناثر على الطاولة فرش الرسم الطويلة التي يمسكها بأصابع المعلم الملمّ بمهنته. كان يلبس قميصا أزرق اللون، وبنطلونا بشيّالات مزخرفة، ومثل أي فنان أنيق المظهر ترك شعر رأسه ينمو أكثر من المعتاد. تقاطعت

دروبنا بعض الأحيان في أكثر من بلد، وبمختلف المراحل العمرية. وظل ذلك الحوار الشيق الذي أجريته معه في دمشق ذات سنة، نجمة متوهجة في العلاقة بيننا.

ربما وقت الغروب، ربما انهماك مرتضى بخيالاته، ربما بالنقاشات الطويلة التي انهمكنا بها خلال تجوالنا في الغابة، أو على طاولة الفطور في المطبخ، كل ذلك جعل الحديث بيننا متقطعا، وكلانا يرتكز إلى وعي بحقائق الحياة. لقد لمست منذ اليوم الأول لزيارتي شيئا جديدا في روحه، ربما ذلك الانطفاء الوجودي في معترك الحياة. أو نهاية المعترك على وجه التحديد. خلف مرتضى جدار معبأ باللون. أستطيع أن أرى اللوحة غير المكتملة، وهي لفتاة تسير في طريق ضيق، وحيدة يبدو عليها الضياع، هي تشبه نبال كما فكرت وأنا أحدق بذلك اللون الأصفر لملابسها، وفردة حذائها المنفلت من القدم، والأبنية المتهالكة بواجهاتها المجهولة. لا بد أنها نبال في واحد من مخيمات اليونان، أو في زقاق من أزقة دمشق قبل أن تهاجر. هناك تشابه بين التجربة السورية والتجربة العراقية. قبل عقود مر العراقيون، وأنا من بينهم، بالتجربة ذاتها. تجربة الانسلاخ من الوطن والقدوم إلى أوروبا. لقد عبرّت تلك اللوحة المثبتة قرب رسمة الفتاة غير المكتملة، عن هذه التجربة، تجربة عبور البحر، بصدق، وهي لا تخص السوريين فقط، بل أصبحت ظاهرة عالمية. أسلوب هذه

اللوحة لا ينتمي إلى أسلوب مرتضى في الرسم. اللوحة تبرز إله البحر في الأساطير اليونانية "بوزايدون" وهو يفغر فمه المرعب ليلتهم قاربا مكتظا باللاجئين. تنتأ من خلف الفم يد عاتية تمسك حربة موجهة إلى الأعلى بثلاث شفرات. وخلفية الوجه المرعب الغاضب لبوزايدون سماء دموية تميل للون الأحمر، وكأنها الجحيم الذي تحدث عنه كاتب إيطاليا الأشهر "دانتي الأليجيري" في ملحمته الكوميديا الإلهية. لقد عبّر نصير في مقالته عن تلك المغامرة المرعبة خير تعبير. نصير يعود ليقتل، وسام يهرب من دمشق ليستقر في لوفان. مرتضى منهك من الغربة، وقانع بها في عمره هذا، ولميس تتوق إلى تأكيد ذاتها في بيئتها الجديدة، لكن كم يطول الصراع في حياتها؟ سام مهووس بالموسيقى، الأولاد مهووسون بالراب والألعاب والصداقات الجديدة، ونبال مهووسة بصحتها وتريد أن تجد لها مكانا في هذه المدينة. ومرتضى مهووس بالنساء، نساء اللوحات. نساء، نساء، صحيح هذا الرجل مهووس بالنساء، لكنه لم ينس وضع صورة له وهو صغير بجوار المرأة الممددة على السرير.

كانت صورة قديمة جدا، ربما لا يتجاوز عمره فيها العشر سنوات. الجاكيت الفلاحي، والدشداشة البيضاء، والنظرة الفاحصة، وهو يقف بين اثنين من أقرانه على قنطرة ذات سياجات من الحديد. ويبين خلفهم بستان من

نخيل وشجر وسقوف قروية لبيوت فلاحين. لقد امتلك مرتضى تلك النظرة الحالمة إذن، المتفحصة للألوان والاشياء منذ الصغر.

- أخبرني نصير ذات مرة ونحن نجلس حول التمثال أنه تعب من الفلسفة، وتعب من الدراسة، ومن أوروبا، ويرغب بتغيير مسار حياته. ينتقل إلى مرحلة تغيير الواقع، العبرة الكبرى التي توصّل إليها ماركس كما قال.

- التقيت نصير في دمشق وكنت في زيارة لبيت صديقنا الشاعر عبد الحميد، قلت لمرتضى وأنا أحدق بلوحاته الساحرة التي تحيل إلى ماض شاحب، ومنجز. كان في طريقه إلى بغداد. هناك أشخاص تميل إليهم وتحبهم من الدقيقة الأولى، يمتلكون وهجا غامضا يشع من وجوههم ونظراتهم وتعابيرهم، ولا تملك حتى قبل أن تنسجم فكريا وروحيا معهم أن تنجذب انسانيا لهم. خاصة وأن خلف تعابيرهم تجربة ناضجة، وقناعات ذكية وصلوا إليها بصدق وجهد استغرق عمرهم كله. كانت لديه أحلام ضخمة. في تلك الليلة استمعنا إليه وهو يحلم ببناء صالات للأوبرا، ومسارح، ودور للموسيقى، ومدارس للنساء الأميات في القرى والأرياف تنير لهن حقوقهن ودورهن في بناء المجتمع. كان يحلم بتكريم للكتاب والمثقفين، وتشجيع الترجمة من اللغات الأخرى، وتدريس الفلسفة في المدارس، وطبع كتب المبدعين المغتربين، وتأسيس متحف للوحات

الفنانين الذي عاشوا خارج بلدهم. طرح في تلك الليلة عشرات المشاريع التي يخطط للقيام بها بعد عودته. التنوير، كان مهووسا بفكرة التنوير. لم يعد يؤمن بالقراءة فقط، أو بالمعرفة النظرية فقط، الفعل هو ما يهم في التغيير. وكان وجهه يحمل أقصى تعبير للجدّية، والعزم، والتصميم. بعد سنة لحقته أنا أيضاً. ثم سكنت في شارع فلسطين. دعوته ذات يوم إلى البيت، وسهرنا سهرة لن أنساها. فهمت منه أنه ودّع شمسا ليست شمسه، ورائحة أشجار لا يعرفها، ورتابة شوارع لا يعيش فيها أحد من أقربائه، وقوانين لم توضع له، وغبارا نادرا ما يرتفع من شوارع لوفان النظيفة، وملامح سئم من رؤيتها، نفسها، طوال عشرين سنة من غربته. وظل يمتلك إصرارا عجيبا على قطع خيوط الغربة مع ذلك البلد البعيد. هي صفحة من كتاب حياته طواها إلى الأبد، وكان قرار مغادرة لوفان أصعب قرار اتخذه في عمره كما قال في تلك الليلة البغدادية.

– لو تدري كيف استقبلت خبر مقتله. كنت أمشي من النافذة قاطعا الصالون، مجتازا الباب داخلا غرفة النوم، راجعا إلى المدخل، ثم مرة أخرى إلى الصالون، أتلبث دقائق خارج الزمن محدّقا في مبنى الكنيسة الكئيب. ولم يفارق كأس الويسكي شفتي، ولا فارقتني سيجارتي الحنونة. كنت غير مدرك ما أفعله، حتى أنني نظرت إلى اللوحات بفتور، وشتمت البلد، والسياسة، والشرق،

والحضارة برمتها. مشيت في شارع لوفان الدائري مرتين، ثم عدت إلى البيت وعيناي كساهما ضباب غريب، وأعتقد أن ستارا من اللاوعي كان يبعدني عن الواقع. جربت الأغاني الحزينة والموسيقى، وحاولت إمساك فرشاتي، ولا تحدثني عن الكتاب، فهو آخر ما فكرت فيه لأبعد روحي عن الغوص في السنوات التي قضيناها أنا ونصير نتسكع في لوفان. في مقاهيها وحاناتها وصالاتها السينمائية وأزقتها وكنائسها، ولم ينفع أي أكسير أرضي في نسيان ذلك الماضي. متى نمت، وكيف، لا أعرف. كانت ليلة شيطانية بحق.

وكان مرتضى يحتسي كؤوسه بتمهل، على وقع الأغاني العراقية الحزينة. وقف طويلا أمام صورة أخرى لأمه وأبيه، صورة باللون الأسود والأبيض. أمه وأبوه وهما يجلسان على أريكة وخلفهما نافذة. أبوه ملتح ويلبس اللباس العربي التقليدي المتكون من العباءة، والعقال، والغترة. ويمسك عكازة أنيقة بكلتا يديه، وقد بدا على تعابيره طيبة ومسالمة. بينما بدت أمه منتصبة بجلستها، ويخيل لمن يدقق في الصورة أنها امتلكت شخصية قوية مهيمنة، وكانت تبتسم بنعومة.

لماذا وضع مرتضى هذه الصورة على جدار مرسمه؟ ولماذا وضعها جنب صورته مع صديقيه؟ قد تكون أمه هي من يفتقد في حياته، حياة ناسك الفن، يكررها في معظم لوحاته، ربما لأنه يفتقدها، وربما لأنه يبحث عنها

بين النساء جميعا، لتتطور لاحقا إلى بحث عن المرأة الخالدة. الأنثى. في الشرق نسبوا لوحاته إلى الذائقة الغربية التي تأثر بها، وفي الغرب عند أول معرض أقامه في لوفان كتب النقاد عن خصوصية مرتضى ذات الجذور الراسخة في الضوء الشرقي، وشدّته، وتدرجاته، وفي السماء الصافية. الفرح لدى مرتضى هو الأنثى، والحزن كذلك، الأنثى بعالمها المكون من شراشف وستائر وأرائك ومرايا وأحذية، وصولاً إلى الاكسسوارات الداخلية التي تلهم إيحاءاتها الجسدية المتلقي بليونة أحياناً، وبعنف أحياناً أخر. ولكن، وعلى رغم هذا العالم الفرح، يواري حزنه العميق، ويحاول، ببراعة لافتة، من خلال تغييب الملامح، أو من خلال إطفائها، أن يبعد الأنظار عن مسحة الحزن، أو يموّهه.

- أنا امتداد للفنانين أينما كانوا. أترك اللحظة تحدد ذلك، وأعني بها لحظة الخلق. أنا أحس في اللاشعور أنني بابلي أو سومري، وطفولتي تنتمي إلى واقعي. أما من ناحية التأثر فأنا خليط. وأنا أعتز بتجربة الخليط. لا أستطيع القول أين تتجلى تأثيرات البيئة. كثير من النقاد العرب يعتقدون أن عملي أوروبي بسبب التشخيص الموجود في لوحتي، وطبيعة الشكل ومزج الألوان. وهي تقديرات فيها قصر نظر، لأن الحركة التشكيلية في المنطقة العربية

جديـدة، وأسـاتذتنا اسـتفادوا مـن أوروبـا. كـما
أننـي لا أؤمـن بقوميـة الفـن أو إقليميتـه، فالفـن
لغة عالمية، تزاوج في اللون والبيئات.

هـل كنـت أسـتمع إلى صـوت مرتـضى أم أننـي أسـمع مـا كان يـدور في عقـلي مـن حـوارات سـابقة مـع مرتـضى؟ شـعرت بالتعـب، ونزلـت مـن كرسـيي ثـم تمـددت عـلى سريـر وضعـه مرتـضى قريبـا مـن الشـباك، وأخذتنـي الأفـكار إلى تلـك العائلة الغريبـة، وبـدأت أسـافر مـع سـام في أنغامـه، ومـع بـؤس نبـال، وتوهـج عينـي الزوجـة الباحثـة عـن مغامـرة غـير منتظـرة. ارتسـمت لوفـان مـن ذلـك التـل مدينـة دائريـة تحيطهـا التـلال. كانـت الجامعـة الكاثوليكيـة واحـدة مـن أهـم مراكزهـا ذات يـوم. هـي والكاتادرائيـة العجيبـة الزخـارف. الجامعـة التـي أمـضى فيهـا نصـير سـنوات دراسـته، هـي ذاتهـا مـن صاغـت ذلـك التمثـال ووضعتـه قـرب بوابتهـا. هـي تفخـر بالمعرفـة بالتأكيـد. تحولـت لوفـان مـن مدينـة مغلقـة عـلى كاثوليكيتهـا إلى مدينـة تسـتقبل الجميـع. حـين وصلهـا سـام قـضى سـبعة أشـهر إلى أن اسـتطاع تأمـين مـكان للعائلـة قبـل مجيئهـا مـن تركيـا. قضاهـا في نسـج علاقـات مـع سـوريين ومصريـين، واشـترك في حفـلات غيتـار، واشـتغل في أكثـر مـن مـكان. هكـذا سردت لي الحكايـات عـن وجودهـم في مـصر. لميـس أيضـا حـكّاءة بارعـة. كانـت حكايتهـا تـرن في أذني ولم يسـتطع صـوت الغنـاء الحزيـن، وحركـة مرتـضى في الصالـون، ودقـات

جرس الكنيسة، إبعاد أفكاري عنها. مدينة نصر، كانت تقول، شوارع فسيحة ونظيفة ومنظمة، منطقة متحضرة، وفور السكن فيها راحت تبحث عن مدرسة للأولاد، ولاحظت وجود قليل من السوريين في المنطقة، ترافق ذلك مع تصاعد الثورة على نظام مبارك. كانت الموارد شحيحة. كان أثاث البيت عتيقا جدا. تفوح منه روائح كريهة، منطقة أشبه بالمدينة السياحية، ضباط، نظافة، نوادي، ولا يوجد بها أبنية عشوائية، وهناك ناطور للبناية. أدخلت هانيبال ونور إلى مدرسة سورية غير معترف بها مصريا كي لا ينسيا اللغة على الأقل. كان السوق الشعبي ممتعا: فواكه، خضرة، لحوم رخيصة لا أحد يعرف أصلها، وقيل إنهم اكتشفوا لحوم حمير تباع على أنها لحوم بقر. المشكلة التي واجهت لميس وجاراتها السوريات هي الايجارات، فهي تضاعف فورا ما إن يعرف المالك أن الشخص المستأجر سيكون سوريا. مصادفة التقت لميس في ذلك المول بامرأة سورية تبحث عن مدرس موسيقى لابنها، وتم الاتفاق مع سام حول الموضوع. وهكذا تعرفت عائلة لميس على عائلة الصحافي ناجح اللحام. وهنا تغيرت حياتها كثيرا، ففي كل جمعة تجتمع النسوة في بيت واحدة منهن، ينسين غربتهن بمصر، ويخلقن جوا سوريا بديلا. يقضين الوقت بالرقص، وعمل التبولة، ومناقشة أحوال الثورة، وقصص اللاجئين، والأحلام التي تراودهن، وكلها تتمحور حول الخلاص

من هذا الكابوس. الأولاد اختلفت حياتهم كذلك. يذهب سام إلى العمل مدرسا في معهد القيثارة، وكان المعهد يقع في شارع الجيزة، وكان الراتب عاليا نسبيا. وبدأ يفكر بالتأسيس لعمل ثابت كي يقيم في مصر. إلا أن وضعهم ارتبط بالوضع العام في مصر، وبدأت الأسعار ترتفع، والفوضى تتنامى، ومدرسة الأولاد ليست مشجعة، بعد أن استشرى فيها التعصب. تجديد الاقامات أصبح متعبا وصعبا، وأصبح الدخول الى مصر يتطلب من السوريين فيزا، وهو أمر شبه مستحيل. كان الخناق يضيق يوما بعد يوم. حتى العمل لم يعد مضمونا، وهكذا جاءت فكرة الرحيل إلى تركيا.

كانت تلك نتفا من حكايات لميس. أستعيدها بوضوح ورأسي على المخدة يتقلب في آتون تلك الأفكار والتداعيات، وأعصابي تعمل بجهد مضاعف، كما لو أنني أمتص حكايات هذه الأيام بعمق ودقة. ما جعلني كي أكون أذنا صاغية لهذه العائلة ليس تعاطفي مع المعاناة البشرية، وهي خاصية يحتاجها كل كاتب أو فنان، لكنها أيضا تجعلني أحس وكأنني عشت التجارب ذاتها، وتفاعلت مع الصعوبات القاتلة لكل تفاؤل بشري، وهي تمدني بعمر إضافي يطيل من عمري البايولوجي. بتعبير آخر، زاوية شخصية فكرت فيها طويلا قبلئذ، وربما هي ما كان يدفعني إلى تتبع الأفكار، والقصص، والحكايات، عبر

الكتب. أنا على قناعة راسخة أنهم يثقون بي، ويثقون بتعاطفي الانساني مع تجاربهم. وهذا ما رأيته في عيني لميس كذلك.

على مدار ثلاثين سنة لم ألتق بعراقي، أو سوري لاحقا، إلا ويسحب خلفه مأساة، بعض تلك المآسي تتشابه حد التطابق وهذا ما كان يدهشني دائما. وكأن هناك يدا خفية لا ترغب لتلك الشعوب في أن تعيش زمنها مثل بقية البشر. حكمت عليهم بالنفي، والهجرة، والموت، والسباحة بين البحار والمحيطات. وعلى وقع تلك التداعيات الذهنية نمت بعمق، وكانت الساعات تمر، والهدوء مستحكم. وما بين النعاس الثقيل والنوم القلق قرأت لوحة ضوئية في خيالي، إذ رأيتني أقف حائرا، أطيل تحديقي في جدار، وكنت وحيدا، ينطلق من عينيّ وهج غامض أحسه يضيء السماء، وفي عقلي أفكار لا تسبر، توحي بأنني مقدم على مغامرة لا أعرف كيف تنتهي. وكان الجدار صفحة بيضاء تتلاعب عليها الأشعة، وتغمرها بألوان رمادية، متدرجة نحو الصفرة. مع الألوان أبخرة شفيفة وخيالات، وانعكاسات لا تجسّد شكلا معينا. ضوء يندغم بعتمة. رطوبة وألسنة مائية وظلام. بقع خلتها بلا حدود، وسيول من أقواس قزح وضباب كأنها ملايين الخيوط تلفح الفضاء. في كل ذلك مسحة من الضجر، من الفراغ والهيمان نحو الامتلاء. كان الجدار فراغا شاسعا. من أين أبدأ؟

سألت نفسي، وفي الذهن أشكال وأطياف وعالم هلامي لم يتشكل بعد.

أنا في عالم غريب. ثمة غيوم تموج ليس لها هيئات واضحة، وخطوط وبقع وبحار ملونة وظلال. كلمات وحروف ورموز. ظلت تتوالد، وتنمو، وتندغم، طوال أزمان لا تحسب بالسنين، بل بمقدار الألم الذي جلبته إلى الضمائر. هل كان ذلك حدس بمغامرة قادمة سأعيشها؟ الكرستالات الضوئية هناك، في زاوية من الرأس، وكذلك بلورات الذهب والتراب، والنار المتأججة والمياه. والجدار خلته يمتد ويمتد إلى ما لانهاية. لا يمكن أن أكون في بغداد أو دمشق، فكل الرموز غريبة على أحاسيسي، وتساءلت في سرّي هل أنا في لوفان إذن؟ وكتبت بما يشبه البحران كلمة الكهل يطير، والرعد قاتل. ليس لي علم بتلك الرموز وكأنها تهيؤات غجر في ليلة ظلماء. ثم فرشت فوق الكلمات مستطيلا أزرق يشوبه قليل من البياض. وفي داخله رسمت الطير بهيئة عظايا مجنحة. ذنبها ينشطر إلى ثلاثة فروع. فرع لشجرة السنديان، وفرع للكنيسة المضلعة البيضاء، وفرع للنهر المتواصل الخرير. ترى هل رافقتني حربة "بوزايدون" الثلاثية حتى في المنام؟

تخيلت مخلوقا متخشبا على قوائم اسفنجية، يتقدم ببطء، ثم وجدت نفسي أقف على حافة ذلك البرج، برج الاتصالات القريب من النهر. الهواء يداعب وجهي بعنف

ويحملني على الاقتراب من الحافة، وهناك رغبة عارمة لقذف جسدي في الهواء. تحتي تبدو التلة القريبة صغيرة، ومثلها الشوارع، والجسر المار فوق مياه القناة. القوارب ملونة، والمياه فضية تعكس حركة الغصون. بيت مرتضى يختفي خلف أشجار الغابة، وتبدو أبراج الكنيسة، وسقوفها القرميدية الحمراء، وكأنها لوحة مرسومة على قماشة شاسعة هي الأرض المحيطة بلوفان. تملكتني رغبة عارمة بالانتحار مما هالني وأدخل الرعب في قلبي. هل وصلت روحي إلى قناعة عميقة من لا جدوى هذه الأيام التي أعيشها؟ هل توصلت إلى أن دوري في هذه الحياة قد انتهى؟ لكنني فجأة وجدت نفسي في مكان غريب أشبه بالمخيم. وكانت نبال هناك.

آلاف الأشخاص يتظاهرون ويهتفون ويغنون، يسند بعضهم بعضا وينظرون إلى السماء الصافية. وفدت من جهة الشرق طائرات محلقة في هواء راكد، وحين تعامدت مع الحشود راحت تلقي براميل كانت تبدو وهي تسقط مثل ريش ناعم يتلوى في الجو، ثم ما أن تصل إلى الأرض حتى تتفجر بأصوات مصمّة تبعث الرعب في القلوب. أشلاء متراقصة، رؤوس محترقة الوجوه، دماء تسيل على التراب، وعويل هائل ينطلق إثر ذلك ويطغي على زغردة عصافير الفضاء، وغربانه، وخرير مياه غير مرئية. لم يستمر المشهد سوى لحظات ثم صفا الجو، وتبدّت نبال بكامل

ملابسها، تسير أمام رجل ضخم يقودها نحو جملون طيني ذي باب من الخشب عريض. كان الرعب على جسدها واضحا، رجفة الأطراف واختلال الخطى وتكشيرة الفم. كنت أحمل تلفوني وأصوّر ما يجري كما لو أنني أقوم بصناعة فيلم سينمائي. في عتمة الجملون ربطها ذلك الرجل بحبل غليظ، وتقدم منها نازعا ملابسها هاما باغتصابها. وكانت تقاوم بكل قوة جسدها الضئيل. أحسست أنها معركتها الأخيرة، فهي تتلوى مربوطة على خشبة من الشجر تحت نافذة مغلقة يتسلل منها نور خفيف. لم تلبث أن غابت عن الوعي فصورتها بدقة. شعرها الأسود المبعثر على ظهرها ورقبتها النحيلة. صورت وجه الرجل المتوحش وقد انقلب إلى حيوان لا اسم له خرج من طيات الأرض القاحلة.

وفي نقلة كابوسية مفاجئة شاهدت نبال تخرج من الباب، لكنها على شكل هيكل عظمي عدا شعرها الطويل المنسدل على أطرافها العظمية. تقدمت نحوي بخطوات بطيئة تشبه الطيران. وكنت ألتقط الصور بدون توقف. مرت من قربي بدون أن تراني. فالمحجران فارغان. تمشي باتجاه البحر. ولاحقتها بعيني. وعلى حين غرة فار البحر بموجة عالية، أعلى من خط الأفق. موجة تحمل البشر كما لو أنهم نمل يبحث عن طوق للنجاة. صورت الموجة، والبشر الصائحين، ونبال العظمية الجسد وهي تندفع نحو

الماء. لحظات قصيرة مثل رمشة العين وتلاشى كل شيء. ثم فتحت عيني بصعوبة ورعب وأنا تحت تأثير الكابوس. مددت يدي إلى جهاز الموبايل وهممت بتشغيله لرؤية تلك الصور العجيبة. لكنني سرعان ما استعدت وعيي كاملا، وأدركت أن ما عشته مجرد كابوس طويل. وهجست بحدوث وشوشة خافتة غير بشرية عند الفسحة التي وجدت مرتضى ممددا فيها.

نام مرتضى على ظهره، بطنه مرتفعة قليلا، وتحته بساط خفيف من الصوف، والضوء يكشف أرشيفه المكوّم في زاوية المرسم، ومنها مقالة صديقنا نصير عن الغربة وعودته إلى الوطن. لبثت دقائق أفكر بما عشته في المنام. ورحت أنقل عيني مدركا لأول مرة أنني في بيت مرتضى. تلال من الجرائد والمجلات والبوسترات التي صورت معارضه، أو كتبت عنها، أو أجرت معه لقاءات في بلدان مختلفة كدمشق، ودبي، وبيروت، والكويت، وإيطاليا، وباريس، وهنا في لوفان. وكان من بينها حواره الذي نشر في جريدة الحياة اللندنية، وأفرز له المحرر نصف صفحة تقريبا. البلد الوحيد الذي ظل يطمح لإقامة معرض فيه هو بلده العراق. نهضت متثاقلا من سريري، وألقيت نظرة على الكنيسة فألفيتها مهجورة مثل التعاليم الدينية في هذا العصر. هجرها روادها، كما فكرت، إلى المعاهد العلمية، والدراسات الفلسفية، والشاشات الصغيرة والكبيرة،

والسينمات، والمسارح. إذن، لم يكن هناك امرأة اسمها نبال، ولا رجل متوحش يسعى لاغتصابها في ذلك الجملون، ولا هيكل عظمي يمشي، ولا موجة عارمة تحمل البشر نحو حتفهم الأكيد. تقدمت بخطى وئيدة نحو مرتضى وسمعت شخيره الخفيف، وكان فاردا ذراعيه حوله وفمه منفرج قليلا وكأنه يهم بالتهام ألوانه. أيقظته من النوم وطلبت منه الانتقال إلى سريره. حدّق مرتضى في وجهي لحظة طويلة، وكانت عيناه توحيان وكأنه شخص ليس من هذا العالم، لكنه حين عاد من رحلته الخيالية تلك دمدم بكلمات غير مفهومة، ثم طلب مني أخيرا إطفاء الضوء، وقال لي إنه سيواصل نومه على الأرض. لا شيء يهم. نسي المدينة فنسته، وهناك كثير من الفنانين، والكتاب، والمصلحين، بل حتى العباقرة، يصلون إلى زاوية ميتة مثل هذه. اللاجدوى. الفراغ. اليأس. عبث ما أنجزه الإنسان طوال حياته، وما أنجزته البشرية طوال تاريخها، لكن ذلك المنجز لم يستطع حمايتها من الفقر، والحروب، والأمراض، والمظالم. وكل ما أنتجوه لا يعدو أن يكون كومة من الورق الملوث بالحبر. كومة من القش سيذروها الزمن. أنا متأكد أن مرتضى قد وصل إلى النقطة ذاتها، أي عبث الفن من الأساس حين يصل المرء إلى مرحلة عمرية متقدمة. وحين يكتشف أن الفن لم يوقف مجزرة، ولم يطعم جائعا، ولم يوقف تدفق البؤس البشري في كل الاتجاهات. المرحلة التي يتناقص بها

الأصدقاء حتى يكاد أن يصلوا إلى الصفر. وارتسم في خيالي القول المأثور وهو أن لا جديد تحت الشمس.

وعند تلك الخواطر الحزينة عدت إلى سريري، ونمت على وقع دقات ساعة الكنيسة.

بعد الفطور قادني مرتضى بجولة في لوفان. صحيح أن المدينة صغيرة لكنها تتسع بالحكايات. جامعتها الكاثوليكية، ومكتبتها، وصالة عرضها، وشوارعها العتيقة، وساحاتها، وذبابها، ومقاهيها، وأنصابها، كل ذلك لا يعدو أن يكون حكايات متواترة، تتدفق في مسيل الزمن مثل نهرها الصغير النابع من التلال المحيطة بها. هذا ما شعرت به ونحن نتجول في الشوارع لننتهي إلى الجلوس قرب التمثال. وبرغم أنني تجولت أكثر من مرة في شوارعها إلا أنني وجدت صعوبة في حفظ الأسماء، لغتها صعبة، لكنني كنت أمتص روحها عبر شجر وواجهات وأنصاب صغيرة ومعالم مميزة، ألقيها عادة في مخزن الذاكرة كما سميته مع نفسي، حيث أعود إليه كلما وجدت حاجة لذلك. أصبح التمثال بؤرة لما عشته في مدينة لوفان، وكأنه مركز متين يشد خيوط تلك المصائر البشرية كما يشد الطالب ذلك الكتاب بين يديه. هل هي مصادفة أن يصبح التمثال بؤرة الأشخاص المغتربين عن بلدانهم وقد أطللت فجأة على حيواتهم خلال أيام قصيرة فقط؟ مرتضى، لميس، وسام، ونبال، ونصير الغائب، أو المقتول، الحاضرة صورته في

المدينة كما لو كان لمّا يزل ذلك الطالب الدارس في الجامعة الكاثوليكية القريبة من التمثال؟

أراني مرتضى الصالة التي استقبلت أول معرض له حين وصل إلى لوفان، ووجد اسمها غريبا وطريفا "حين تسأل الجدار" ، وجال بي على الحانات العتيقة التي جلس فيها أيام شبابه، والمتاحف، والكنائس الفخمة. وتأملنا الذبابة الطائرة في الساحة، وحدثني عن بيته المجاور للغابة، وكيف تعرف على ماريانا مع زوجها جو وهما يسكنان في عمق الغابة. لقد قطن عندهم ستة أشهر، وأصبح فردا من العائلة. انعطفنا إلى شارع طويل مكتظ بالسيارات والمارة، وقادني إلى باب صغير جنبه محل لبيع الشاورما، وتوقفنا أمام الباب. لاحظت درجات ثلاث تغور إلى الأسفل، وتنفتح بعدها صالة طويلة معتمة. أخبرني مرتضى أنه محل لبيع الأشياء المستعملة تملكه ماريانا. فعلا، شاهدتها تقف خلف طاولة واطئة تتكلم مع واحدة من زبوناتها. في النافذة القريبة من الرصيف تطل على الشارع جزمات نسائية وأحذية وقمصان تجاور مانيكانات نصفية لنساء يرتدين البلوزات والقبعات الصوفية. جذب نظري منها بلوزة نسائية بلون رمادي تتخلله مربعات سود. بلوزة تشبه لوحة فنية. لاحظت أيضا خلال نزول مرتضى إلى عتمة المحل أن له نافذتين واسعتين تطلان على شارع فرعي. وقفت أتفرج فيهما. كان هناك ملابس للأطفال

وأحذية ولادية وكؤوس زجاجية مصطفة على قاعدة خشبية ومصوغات فضية مما تهتم به النساء عادة. واستطعت مشاهدة تلال صغيرة من الكتب تبرز من خلال الزجاج الشفاف متجمعة مقابل ماريانا الواقفة في محادثة هامسة مع مرتضى. وجه مرتضى السمين قليلا يصطبغ بتعابير ودودة، وعيناه ترقصان خلال المحادثة ورأيت ملامحه تتخذ سيماء طفل عابث، وهي الصفة المحببة لدى أصدقائه جميعا. وكانت ماريانا تبدو وكأنها صبية تقف أمام عشيقها. لم أصدق أن مرتضى نقلوه بعد تخرجه من كلية الفنون إلى جبهة الحرب مع إيران كي يعايش المقاتلين ويرسم بطولات الجنود. هل يمكن أن يتحول مبدع كبير مثل مرتضى إلى رسام جثث وأشلاء وأسلاك شائكة؟ تلك التجربة هي التي دفعته للهروب من البلد كله كي يتوه في دروب الأرض.

كنت أنظر إليهما متأملا لكنني لا أسمع من كلماتهما شيئا. أجانب يتوافدون في الشارع بوجود ملموس. يلتهمون الشاورما والفلافل من المحل المجاور. أشخاص ينزلون إلى محل ماريانا ويخرجون حاملين أكياسا من البضاعة. وجدت في نفسي رغبة عارمة للدخول وتأمل عالم ماريانا الصغير. سقط المتاع له فائدة أيضا، قلت لنفسي. وأخبرني مرتضى بعد خروجه من المحل أنه يحترم هذه المرأة، فهي تعتمد على نفسها في تدبير شؤون أسرتها.

زوجها "جو" سكير، وجالس في البيت دوما، لكنها لم تطرده حتى الآن. لهما ابن بعمر السادسة عشرة. ماريانا تطلقت من زوجها السابق قبل أن تتعرف على جو في إحدى الحفلات. أعجبها لأنه يعشق العزف على الغيتار، ويغني أغاني فولكلورية اشتهرت بها قرى الشمال ومدنه. لكنه تحول بعد سنوات إلى مدمن، وفقد كل شيء.

الإله بوزايدون

في مجتمعاتنا لا تمتلك المرأة مثل هذه الفرصة، إلا نادرا، الظلم الفظيع هذا هو ما دفع ربما بفرشاتي نحو المرأة. أنا قريب من المرأة، أدعو إلى تحررها لأنه هو السبيل إلى تحرر المجتمعات. وأعتبرها فكرة مطلقة، فأنا من الداعين إلى حصولها على حريتها كاملة. أجد فيها حالة تعبيرية هائلة. حالة حزن، إغواء، فرح، لأنها تمثل لي الوطن، الأم، الرقة، الحنان، الولادة. أنا أريد أن تبرز جمالها. أنظر وأقرأ ما في داخلها من جمال. هي تشبه محل ماريانا، هناك التافه من الأشياء وهناك الجميل والنفيس، والسؤال كيف نقع على النفيس في روح المرأة ونستثني التافه والفج والقبيح. أتقمص روحها المتحررة، أو أحرّضها على ممارسة حريتها ومشاهدة جماليات الخلق المتجلية في جسدها. وجسدها من أجمل المخلوقات على هذا الكوكب. لذلك أحارب حجبه أو تغطية تفاصيله. الطبيعة منحتنا أشياء جميلة، لذلك لا يمكن تغطيتها، والمرأة كذلك، لا يمكن تغطية جسدها

لأنـه شيء جميـل، ويظـل عالمـا غريبـا أتـوق إلى اكتشـافه، وأنـا مـليء بالفضـول نحـوه. أتـوق لاكتشـاف سـكونه، وعنفـه، وشكله، وأشيائه، وزوايا جسده. الأطفال يكسرون ألعابهم أحيانـاً كـي يكتشـفوا أسرارهـا، وكان مرتـضى يحدثني بانتشـاء، عينـاه تتراقصـان فرحـا، بينـما واصلنـا المشي في الشـارع، نتبـادل حوارات مثل تلك دونما وجهة محددة.

أخـبرني كيـف كان يبقـى سـاعات في محل ماريانـا يتصفـح الكتـب. لديهـا قسـم خـاص بالكتـب، قـال مرتـضى، وهـو يقـع في نهايـة المحـل. كتـب مـن كل صنـف ولـون. عـن الزراعـة البيتيـة، والطعـام النبـاتي، ودواويـن شـعر، وروايـات بوليسـية، وتاريـخ لوفـان بصـور عتيقـة يـدرك النـاظر إليهـا كـم تغـيرت المدينـة. كنـت أجـد بعـض الأحيـان ألبومـات عـن فنانـين تشـكيليين مـزودة باللوحـات، فأنسـى معهـا الوقـت حتـى تنبهنـي ماريانـا. لا بـد أن أخـبرك أننـي كنـت ذات يوم مهووسـا بمعرفـة لوفـان واكتشـافها. اليـوم تجـاوز عمـري السـتين وفقـدت الرغبـة في الحركـة، وتلاشـى، أو كاد، فضـول المعرفـة. لكـن لم يكـن وضعـي هكـذا في سـنواتي الأولى. دأبـت عـلى الخـروج أحيانـا منـذ الصبـاح الباكـر، لأجـول عـلى الأزقـة، والشـوارع، والسـاحات، أتطلـع في الأبنيـة التراثيـة القديمـة، وأراقـب التماثيـل المنتصبـة في الواجهـات والزوايـا وأحفـظ أسـماءها. تدهشـني رسـمة مـا في جـدار عتيـق فأقـف أتأملهـا لسـاعة حتـى اسـتلهم منهـا شـيئا مـن روحهـا. المدينـة لا تمنـح

روحهـا إلا لشـخص يحبهـا. مثـل المـرأة تمامـا. اسـتعرت كتبـا عـن تاريخهـا مـن مكتبـة الجامعـة الكاثوليكيـة، وحفظـت أهـم مشـاهيرها وصالاتهـا التشـكيلية. حـضرت أغلـب الأمـاسي الموسـيقية وحفـلات الغنـاء المقامـة في المناسـبات. توغلـت في غاباتهـا، وعرفـت طيورهـا، وأدهشـني ذلـك الحيـوان اللعـوب الـذي ندعـوه ب"السـنجاب"، فهـو مدلـل مـن قبـل السـكان. صرت أحـس تغـير طقسـها بـين الفصـول، وسـماءها المتجـددة بـين ليلـة وأخـرى. كل ذلـك حصـل في فـورة الشـباب والبحـث عـن أسـلوب حيـاة متسـق مـع إيقاعهـا، وابتـكار رسـومات تخصني وحدي.

كنـت أنظـر إلى مرتـضى بشـفقة، بحـب، خاصـة وهـو يسـير بتثاقـل، وتلـك السـيجارة المطفـأة لا تفـارق شـفتيه، وأستشـف الحكمـة الداخليـة التـي وصـل إليهـا متأخـرا. وراودني تسـاؤل غريـب مـع نفسي: هـل تعنـي الحكمـة لـدى الفنـان، والكاتـب، موتـا بطيئـا، أم رصيـدا يضـاف إلى منجـزه؟ ومـا معنـى التمـرد في هـذه الحالـة؟ التمـرد الـذي يشـحن الإبـداع كـما يتفـق معظـم العارفـين بشـؤون الكتابـة والفـن؟ تسـاؤلات سرعـان مـا ذابـت وسـط الضجيـج أثنـاء دخولنـا إلى جـوف السـوق ذي المداخـل المتعـددة. وحـين حـان موعـد اللقـاء بسـام عدنـا مـن أحـد الأزقـة العتيقـة لنجـده بانتظارنـا عـلى سـاعة الموعـد بالضبـط. وجدنـاه يحـدق في تمثـال المعرفـة بعمـق. عرّفتـه عـلى مرتـضى وذكّـره الأخـير بتلـك الأمسـية

الموسيقية التي حضرها وكانت بمناسبة العيد الوطني لبلجيكا. واعتذر من سام وطلب منه زيارة مرسمه سواء لوحده أو مع العائلة قبل أن يتجه بعجل إلى الجسر العتيق نحو البيت.

وخلال تأملي في البشر المجتمعين في المقاهي، وتعابير سام الجالس قربي، التعابير المترددة، المشككة بوجوده في مدينة لا تعير أهمية لفنه وغيتاره وزوجته الشابة، ونظرت إلى المياه المتدفقة إلى رأس التمثال، فكرت في الشتاءات وما تحمله من صقيع، والثلوج الساقطة على البنايات والساحات، ومصير المياه تلك، مياه المعرفة، وكيف ستتجمد وتقف في الهواء. المعرفة تتجمد إذن هي الأخرى في الشتاء. هناك أوقات صعبة، وظروف قاتلة تحيط بالإنسان لا يعود يستخدم عقله. يتضاءل الفكر عادة وسط عصف الريح، وسقوط الثلج. تاريخ تلك البلدان البعيدة، بلداننا تجمدت في نقطة صفرية منذ عشرات السنين، ولم تعد نافعة لحياة هانئة. تجربتي وتجربة مرتضى ونصير وسام وآلاف ممن يتجولون في هذه المدينة الغريبة بلا هدف تؤكد هذه الحقيقة. هل هي مصادفة أن تقودني خطاي إلى زيارة مرتضى بعد سنوات من الفراق؟ هل هي محض مصادفة تلك التي جعلتني أجلس في المكان الذي جلس فيه نصير متأملا التمثال قبل مغادرته إلى المجهول؟ تتساقط تلك التداعيات في ذهني وأنا أستمع إلى سام يواصل حديثا

ظننته لم ينقطع منذ البارحة: كنا ستة أعضاء، عازف أكورديون وعود وساكسفون ومغني وأنا، كنا نتدرب على الزمن، في الايقاعات، للتحكم به، وتوزيع الأدوار بين الأجهزة، وهو أمر صعب خاصة إذا كان يجري في الشارع. وللمرة الأولى جربت العزف بواسطة الريشة، كنت سابقا أستخدم أصابعي فقط للعزف، العزف بالريشة ينتج صوتا عاليا. يناسب العزف في الشارع مثل دماء شعبنا. كانت هناك فرقتان سوريتان في شارع الاستقلال، لكن فرقتنا نالت إعجابا أكثر من غيرها. حياتي كانت هكذا: أصل إلى المكان مبكرا، ثم نقف منذ الرابعة عصرا وحتى منتصف الليل، حتى وإن كان الطقس ثلجا وعاصفا. شارع الاستقلال كما تعرف، أو ربما سمعت به، شارع سياحي ومزدحم. يبدأ من ميدان تقسيم وينتهي بقلعة اسطنبول العثمانية. نواصل رش الموسيقا والأغاني على المارة الواقفين بعيون مدهوشة، وما أن تنتهي الوصلة حتى نضع علبة الغيتار وننتظر النقود. البعض يدفع، والبعض يهرب قبل الاستراحة. رأيت عددا من العرب يبكون، فالأغاني تعيدهم إلى مدنهم، وقراهم، وشوارعهم التي جاءوا منها. وكأن الغناء يستعيد الماضي بطرق سحرية لا يدركها الإنسان. وزارتنا الصحافة والتلفزيونات أكثر من مرة، وأجروا تحقيقات ومقابلات معنا، وكل ذلك محفوظ في موقعنا الذي أسسناه وقتها على الأنترنيت وسميناه

"دامسك". فرقتنا أعطت الشارع حيوية عالية أثارت حسد الشرطة والفرق الصغيرة. ولضخامة التجمعات حولنا بدأ أصحاب المحلات يحتجون علينا. اتصل بعضهم بالشرطة فعمدت إلى منعنا، وهددونا بالاعتقال. نريد أن نعيش. نريد أن نأكل وندفع الإيجار ونشتري ملابس جديدة لأطفالنا وزوجاتنا. ونريد أن نحلم. نادرا ما وجدت شعبا يحب شعبا آخر خاصة إذا تعلق الأمر بمنافسته على المعيشة. التعامل الإنساني يأتي في الدرجة الثانية. والجائع، والمشرد، والمغترب، والهارب من مصيره، يسقطون جميعا، وبتوالي السنين، في لجة اليأس. وكنا نريد حقا أن نحلم. نحلم بحياة أخرى. ندرك أنها موجودة في مكان ما، أين يقع هذا المكان لا نعرف. ربما لم نصل إلى هذا المصير لو لم نكن نحلم بحياة أفضل. هناك من لا يريدوننا، نحن السوريين، أن نحلم مثل بقية شعوب الأرض. ومضينا بالعمل صيفا وشتاء، في الصحو والغيم، في البرد والحر. وقضينا سنة ونصفا على هذا المنوال. وذات يوم وقف رجل تركي أنيق يتبادل الحديث معنا في الاستراحة، وقال بتعابير متعاطفة مع معاناتنا إن لديه مطعما فاخر التصنيف ويرغب أن يجري اتفاقا معنا. يمكن لنا أن نبدأ العزف في المطعم بعد الثامنة مساء حتى الثانية عشرة، ليومين في الأسبوع، مع أجر جيد مقارنة بما نحصل عليه في شارع الاستقلال. فوافقنا.

لم يكـن الهـدف هـو النقـود فقـط، مـع أننـا كنـا بأمـس الحاجـة للنقـود باعتبارنـا غربـاء على تركيـا ونبحـث عـن فرصة لعبـور البحـر، وهـذا يتطلـب مـالا كثيرا. ثمـة موضـوع انسـاني في القضيـة، كنـا نعكـس صـورة فنيـة جميلـة للسـوريين المشردين الذيـن خرجـوا مـن بلدهـم وأيّـدوا الثـورة القائمـة هنـاك، أو سـعوا لتغيـير نمـط حياتهـم. كل واحـد منـا كان يحمـل في الحقيقـة مضمـون الثـورة في نفسـه، ويرغـب في أن يجسـدها أمـام الجميـع، ولم نكـن نـدرك وقتهـا أن هنـاك قسـما ممـن ركـب الثـورة لأغـراض شـخصية، فاغتنـى مـن المسـاعدات المقدمـة إليهـا، وسـافر وعـاش حيـاة وثـيرة في مـدن الأرض. ويبـدو أن بعـض الاتـراك لا يرغبـون لهـذه الصـورة المعـبرة في الظهـور لـدى المواطنين البسـطاء، لذلـك كانـوا يسـمحون للشـحاذين، والمشرديـن، والعاهـرات، بالعمـل في الشـارع، لكنهـم يطاردوننـا نحـن الجاديـن، الفنانـين الباحثين عـن حيـاة كريمة، ويمنعوننـا مـن العمـل. أتذكـر أيامـا بعينهـا قضيناهـا نتراكـض مـن شـارع إلى آخـر والشرطـة في إثرنـا. نختبـئ في حانـة أو مقهـى، حتـى ينجلي الجـو منهـم. في الوقـت ذاتـه كانـت هنـاك في الأفـق البعيـد مغامـرات "دونكيشـوتية" تجـري في عـرض البحر المليء بالجزر.

تـدور حكايـات مرعبـة حـول هيجـان المـوج، وغـرق القـوارب، وصراخ الأطفـال والنسـاء، وهـم ينظـرون إلى طـوق النجـاة الـذي لا يصـل. أسـمع تلـك القصـص وأتخيـل جيشـا

من النمل يمتطي قشة كي يعبر بها من جرف إلى آخر. اليد التي ستغرق ذلك الجيش تمتد بسهولة غير عابئة بمصير آلاف الكائنات الحية التي تتنفس هواء الأرض. أن تصرخ أو تضرب رأسك في أقرب حائط لا يجدي نفعا، فثمة شعب يغرق في البحر، وثمة مصائر غامضة. سمعنا بغرق سوريين كثر في صحراء المياه الممتدة بين تركيا واليونان، وعملنا أغاني حول الموضوع، تستدر الدموع في النهاية من مارة جاءوا من بقاع الأرض. وماذا تنفع الدموع. لقد تحولنا إلى نهر من الدموع يبتدئ من أقصى تل في الجنوب حتى نهاية العالم. بعض المرات أتطلع في نهر لوفان وأتخيلها دموعنا المالحة، والماء في القناة يحمل رائحة الغرقى ممن لم يحالفهم الحظ في اجتياز البحر. كنا نسكن في الطابق العشرين، وعبر النافذة نستطيع رؤية أطراف العاصمة، ورغم أن معظم السكان من الأكراد والأتراك وقليل من السوريين والعراقيين، إلا أن السكن يوحي بالأمان والراحة، وكنت أعطف بعض المرات على زوجتي لميس وأختها نبال من بقائهما الدائم في الشقة. أعطف على الأولاد كلما رأيتهم جالسين أمام الفراغ. لم يكونا يختلطان بسكان البناية.

الإله بوزايدون المعلق في صالة مرتضى لم يزل حيا، التهام البشر هاجسه الدائم، لكنه لم يعد إلهاً أسطوريا بل هو اليوم يتجسد بأنظمة تبيع السلاح، وتجار يقبضون بالدولار على كل رأس بشري يقفز من قارة إلى قارة. وعربة

الموت تسير مسرعة منذ آلاف السنين، وها هي تبغي الوصول إلى سرعة صاروخية بعد أن تغذت بوقود جديد اسمه تكنولوجيا الشر، وبينما كان سام يتحدث بدأت أسراب من الطيور تعبر فضاء الساحة متجهة نحو التلال المحيطة بلوفان. وارتسم تعبير الغضب المهول للإله بوزايدون في رأسي. الهواء العابر بين البنايات، وعلى الوجوه الطلقة، وأوراق أشجار الطرق الزاهية يشيع سلاما خفيا له دفء الصيف وطراوة التلال، برغم الضجيج والحركة. وكنت أسمع الحديث وكأنني سمعته ذات يوم بعيد. العيش في الماضي سمة للمغتربين، إن أراد أي كاتب رصد وتوثيق تجربة المغتربين لن يجد أمامه سوى الماضي، حتى وهم يعيشون في مدن أوروبية تختلف في إيقاعها، وهمومها، ويومياتها، يبقون في ذلك الحيز من الذاكرة. التكيف صعب، والاندماج يظل في القشور الخارجية للكائن. تستهويهم عادة الحديث عن معاناتهم، وتجاربهم السابقة، وهذا ما يعيشه الناس العاديون غالبا.

أما إذا كان الشخص يمارس هواية ما، أو ابداعا مثل مرتضى وسام ونصير وغيرهم من كتّاب وفنانين وممثلين ورسامين وعازفين، فسيكون الماضي هو العهد الذهبي لإنجازهم، سواء جاء على هيئة ألحان أو روايات أو لوحات تشكيلية، وقد وجدت لوحات صديقي مرتضى النسائية لا تخرج عن إطار تلك المرأة التي عرفها صغيرا ثم فارقها

لعشرات السنين، أي أمه، وذلك الهوس برسم المرأة يؤكد تلك الحقيقة. لا يشذ سام وهو يسير جنبي بكلامه المتلاحق، وشعره الأشيب المتطاير، وعينيه القلقتين، عن القاعدة الذهبية تلك. لا تجذب نظره أية شجرة غريبة نمر بها، أو واجهة كنيسة مزخرفة، أو ملابس شخص يسير في الشارع. لم تجذبه الروائح الهابة من الصبايا، ولا تفاصيل أجسادهن وهن يمشين في الأزقة العتيقة كما لو يؤدين رقصة باليه. أحيانا أتخيل أن الإنسان كومبيوتر عملاق يحتوي على ملفات لانهائية: ملف عن الروائح التي يشمها منذ الولادة، وعن الأصوات وأنواعها، ونغماتها، والمشاعر التي تحملها، والأحلام التي عاشها. وملف عن الأمكنة وتنوعها، وعلاقتها بالزمن، وعن الأفكار القادمة من الكتب والحوارات، وعن الأسماء والوجوه والأفلام. ملف عن البلدان والصور، وعن اللذات الجسدية، ومواقف الرعب والخوف. وآلاف، آلاف الملفات الأخرى. بعض اللحظات تختلط تلك الملفات بعد أن تزال الحدود الافتراضية بينها لتصنع من الشخص ذلك الوجود الملموس الذي هو عليه. أي ما تعرف بالشخصية. لكنها تجارب ناجزة لي ككاتب، أستطيع توظيفها في رواية أو قصة.

اتجهنا إلى البيت عبر شارع الطلبة، مرورا بساحة الذبابة التي كانت فارغة تقريبا، ولاحت المحطة من بعيد. في فاصل قصير من الصمت سألته إن كان يجد رغبة في زيارة

صديقي الفنان مرتضى فتحمس سام للفكرة. وبدأت أرسم لصديقي مرتضى خارطة تعطي لسام فكرة عنه. حدثته عن شرائه لبيت في دمشق تحقيقا لحلم الاستقرار هناك، وهذا قبل أن ترتفع حرارة الأحداث في سوريا، وكيف كان يعرض لوحاته في أهم الصالات الفنية، وله أصدقاء كثيرون، وكيف كان يعرض لوحاته في صالات دمشق وبيروت وعمان ودبي وباريس وبروكسل، واعتبر من الفنانين العرب الذين يحوزون على أعلى الأسعار للوحاتهم. واختصرت له مشاعر رفقتي له في حارات دمشق القديمة، ومشاربها، وحماماتها العتيقة، وروائحها الصباحية في ركن الدين، والمرجة، وأزقة باب شرقي. عندما دخلنا ذلك الزقاق الغريب، وهو طريق ثان للوصول إلى البيت يكاد يوازي الشارع الرئيسي الذي عرفته سابقا، ارتسم إحساس لدي أنني رأيت ذلك الزقاق في مدينة ما ذات مرة. في بغداد أو دمشق أو برلين أو اللاذقية أو الحلة أو الرمادي. يشبه صورة قديمة تأملتها في زمن ما. مشهد سريع يبرق في ذهن المرء وينقله فجأة إلى خارج الحاضر.

معظم المتنقلين والمترحلين بين البلدان والأزمان عاشوا ذات يوم الموقف الذي أعيشه الآن ونحن نسير في ذلك الزقاق. الزقاق بدا وكأنه لا ينتمي إلى لوفان العصرية. حجارة أرضه غير مستوية، وتنفتح عليه أبواب ضيقة تنتشر الخدوش، خدوش الزمن، على أسطحها، وكانت

نوافذ البيوت صغيرة تنث أضواء خافتة إلى الزقاق. هناك مخازن لأشياء متروكة. وهناك أبواب مغلقة بالمرس. والإنارة سيئة وتضخ الخوف في النفوس خاصة إذا ما تراقصت الظلال على الأرضية. تذكرت على وقع خطواتنا المتمهلة الحذرة أفلام الرعب، والأماكن المهملة، والأصوات غير المفهومة الصادرة من اصطدام الأشياء بعضها ببعض. تذكرت المقابر الموحشة، والوديان الصحراوية، والأجراف الكئيبة للأنهار البعيدة عن المدن، والزقاق لا يترك مجالا للتفكير بأن المنطقة منطقة سكن لأجانب، لاجئين على وجه التحديد.

- أخبرتك بأنني حدثت صديقي مرتضى عنكم. طلب مني إخباركم بأنه يرحب بزيارتكم لبيته والتعرف على شغله. بيته قريب عند انعطاف الجسر، وبعد اجتياز سوق الباشا تنعطف إلى اليسار فتجده مقابل تلك الكنيسة القديمة.
- فكرة رائعة. نحن هنا نبحث عن رئة نتنفس من خلالها الهواء النظيف. تعرف أن الاغتراب ونمط الحياة هنا غيّرا طبائع البشر، لم تعد تتفهم ما يجرى لهؤلاء، فجأة ينزعون أقنعتهم فلا تعود تتعرف عليهم.
- أخبرني أنه يعرفك، حضر حفلة للاجئين

وسمعك وأنت تعزف وتغني.

- نعم حدث هذا قبل سنتين تقريبا. عزفنا في صالة واسعة وكان الحضور معظمه من البلجيكيين.

ثم استأنف سام مونولوج طويلا عن تجربته في إسطنبول، وبدأت خطواته تتباطأ وكأنه يريد الخلاص من ثقل داخلي ضاغط. تراكمات من المشاعر والذكريات المحبطة وهالات الندم. قد تكون لعتمة الزقاق الذي دخلنا فيه دور في إيقاظها من جب روحه العميق. كأن الزقاق بغرفه وشبابيكه العتيقة وأصواته المكبوتة في الصخور المتآكلة، يمده بالرغبة المتواصلة على البوح: كل يوم نجتمع في الصالون بعد عودتي من العمل، ويكون موضوعنا المفضل للحديث هو الماضي. تلك الحياة التي فارقناها بأسف وغضب وحزن، تركت زوجتي أمها وأباها دون معيل. وتركت نبال أولادها هناك. وكان أحلى موضوع لدى نبال هو الحديث عنهم. فرحنا في البيت حين وجدت نبال عملا في مطعم سوري بإسطنبول، ستحمل قليلا من الأعباء اليومية للعائلة. تخرج كل يوم صباحا وتعود في العصر أو مساء. تعود منهكة. أما الأولاد فكانت تسليتهم هي جهاز "التابليت" ، تشغلهما ميس بأفلام تعليمية عن الحياة، أو أفلام مغامرات سينمائية، تعوضهم النزول إلى الساحات. أصبحت زوجتي خبيرة بالأفلام. واعتقد أن

أهـم مـا فعلتـه للعائلـة أننـي اشـتريت غيتـارا لهانيبـال يتعلـم عليـه العـزف وبيانـو لنـور. سـحر نـور بتلـك النغـمات الشـجية الصـادرة منـه، وكنـت أعطيـه ملاحظـات حـول العـزف، وكنـت أحلـم بـأن يصبـح عـازف بيانـو مسـتقبلا، برغـم أن مهنـة الفنـان مهنـة بائـرة في بلداننـا. البندقيـة والوتـر، النغمـة وصـوت الانفجـار، كيف يمكـن لنـا تعليـم الكلاب سـمفونية بيتهوفـن؟ أو تعليـم السـنجاب بحـيرة البجـع؟ لسـت ضليعـا بالفلسـفة أو العلـوم البشريـة لكننـي لا أتخيـل الشـخص انسـانا حقيقيـا بـدون موسـيقى. الموسـيقى ملـح دمـي. الموسـيقى موقفـي الوحيـد مـع ثـورة شـعبي للبحـث عـن حيـاة أجمـل، حيـاة حـرة طليقـة تشـبه حريـة البـشر عـلى هـذه الأرض. أصبح جـو إسـطنبول خطـرا، وهنـاك شيء مـا لا يمكننـي رؤيتـه لكننـي أتحسسـه بصـورة غـير مبـاشرة. السـوريون كثـروا، والعمليـات العسـكرية في الوطـن تصاعـدت، ولا حـل في الأفـق. لمـاذا؟ لا أعـرف. الفنـان ليـس سياسـيا كـي يتكهـن بالمسـتقبل. أنـا عـازف مزمـن عـلى آلـة الغيتـار. أنـا طفـل النغمـة، وهـي تسـيل في الهـواء مثـل لسـان سـاحر، أنـا النجمـة البعيـدة في ليـل مظلـم، حـارس الهـم والحـزن. لمـاذا؟ لا أعـرف. أنـا لا أعـرف مـا يجـري لنـا، رأيـت المذبحـة وعشـتها فـما كان منـي سـوى الهـروب. الهـروب مـع غيتـاري، عضـوي الجديـد الـذي التصـق بي وكأنـه ولـد معـي. هـو مثـل الرئـة، والقلـب، والمعدة، والكلية، والأصابع، وتلافيف الدماغ.

لن أنسى اليوم الذي أطلقت فيه النار على الفرقة، قال سام بصوت خافت، بعيد، وكأنه يعود إلى لحظات الخطر تلك، لحظات مواجهة الموت. كنا نعزف بشفافية إحدى أغاني فيروز، جاء شخص وأطلق النار نحو فيروز، وأصيب شخص بجروح نتيجة الحادث. انصرفنا باكرا، واكتشفنا أن حياتنا مهددة، وأفضت نقاشاتنا ونحن جلوس في واحدة من المقاهي القريبة من ساحة تقسيم إلى أن الاستهداف كان مقصودا بسبب كوننا فرقة سورية مؤيدة للثورة، وتسعى إلى الجمال. ليس هناك سبب آخر. اتفقنا كلنا حول هذا التفسير. في تلك الليلة دق جرس الخطر لدى زوجتي، وبدأت تسوّغ لي فكرة التوقف عن العزف وتكريس محاولاتنا نحو السفر، وقد صار شائعا بين السوريين، وانتشر مثل حمى غير معروفة. قالت زوجتي إن الرصاصة ممكن أن تكون موجهة لك. ورأيت الدموع تسيل على خديها الأسمرين، الأمر الذي جعلني أضع مصير العائلة على رأس أولوياتي. لا الموسيقى، ولا الشهرة، ولا المال، يمكن أن تصبح من الأوليات، فقط الزوجة والولدان، وليذهب كل ما عدا ذلك إلى الجحيم. نحيا حياة واحدة. حياة أقرب الناس لك تعلو على كل الشعر والرواية والسمفونيات والبحث، والوطن أيضا. كلما جاءت إلى رأسي بناية المركز الثقافي الروسي أستبعدها خوفا من الحنين الذي أهرب منه.

أتخيـل مكتبـي وطـلابي والكافتيريـا التـي تعرفـت فيهـا عـلى زوجتـي لميـس، المدخـل المرمـري الفسـيح، والصـور الملصقـة عـلى الجـدران، والرائحـة الأنثويـة في الممـرات، ورائحـة البـن في الكافتيريـا، وأهـرب. أهرب إلى حلـم الزوارق والمـوج والجـزر، والمـدن التـي تـرن في خيـالي مثـل جـرس "بافلـوف" . وقتهـا كانـت أزمـير هـي المدينـة المفضلـة للتجمـع والعبـور إلى الغـرب، إلى الجنـة التـي كنـا نسـمع بهـا، ونـروم الوصـول إليهـا. مـن هنـاك تنطلـق مجموعـات المهربـين مـع زبائنهـم الى نقـاط عديـدة عـلى البحـر. لقـد أصابتنـي حمـى السـفر في مقتـل. وضعـت الغيتـار جانبـا. هجـرت الموسـيقى. ونسـقت مـع واحـد مـن المهربـين. ركبـت فـرس المغامـرة. لعبـت في آلـة المغامـرة، الروليـت الـروسي الـذي لا يقـدم عليـه إلا مجنـون أو مدمـن مخـدرات. أمـا الربـح أو الخسـارة. هـذا في الحقيقـة مـا حصـل لشـعبي المسـكين. وضـع ثقلـه كلـه في الثـورة، فإمـا الربـح أو المـوت. انطلقنـا ببـاص إلى أزمـير، وأخبرونـا أن المسـافة تسـتغرق ثـماني سـاعات للوصـول. قطـع البـاص الخليـج عـبر سـفينة ضخمـة، وبدأنـا عنـد الوصـول نبحـث عـن مهـرّب، وعشـنا في الشـارع، لأن الفنـادق كانـت مغلقـة. عراقيـون وسـوريون وأفغـان وإيرانيـون، عوائـل وأفـراد، لأن المنطقـة منطقـة تهريـب، المطاعـم فيهـا تشـتغل بأقـصى طاقتهـا، والفنـادق مختنقـة بالهاربـين، والجميـع ينظـر صـوب الغـرب، وكانـت الشرطـة تقبـض بـين الحـين والآخـر

على بعض السوريين فترجعهم إلى الحدود. فشلت المحاولة الأولى، لكنني لم أيأس. بعض الأحيان أتخيل أنني مت في شارع من شوارع اسطنبول ثم أرى لميس والولدين وهم يستجدون المارة بعض الليرات كي يبقوا على قيد الحياة، استفيق من حلمي وأفرح كوني أتخيل لا غير. وفي اليوم الثاني وجدت نفسي أقف في شارع الاستقلال مرة أخرى مع غيتاري والفرقة. لم يتوقف البحث عن مهرّب نبيل، وفي هذه الأثناء أصبحت لدينا شبكة علاقات مع الأصدقاء، وكان الجميع يبحث ويتحرى عن "حالة الطقس" ، هكذا كنا نسمي أوضاع العبور نحو اليونان. وتوزعنا التلفونات فيما بيننا، واتفقنا على أن نكون جاهزين للمغامرة في أيما وقت تتاح لنا فيه الفرصة، الحقائب جاهزة والنقود كذلك، والتصميم والارادة والمغامرة على ركوب البحر كبرت أكثر فأكثر في النفوس.

وذات عصر شاحب رن التلفون وكان عماد، صديقي في الفرقة. قال لي تعال الآن بدون تلكؤ أو تأخير. لقد تم كل شيء وما علينا سوى التجمع في الساحة والانطلاق، تحدث معي بصوت واثق لم أعهده قبلا. وضعت حقيبتي الصغيرة في كتفي، تركت قليلا من المال للميس، وحملت بقية النقود في جيبي ومضيت. وبعد ثماني ساعات وجدنا أنفسنا لدى نقطة العبور مباشرة. وصلنا ليلا، وطلبوا منا النزول من السرفيس والانطلاق إلى المنطقة المطلوبة مشيا، وكان بيننا

امـرأة شـبه مقعـدة رحنـا نتنـاوب عـلى حملهـا. عبرنـا جبـلا ووديـا ومناطـق خاليـة مـن البشر، ومناطـق تكتـظ بالأشـجار، دون قمـر يسـامر خوفنـا ووحشـتنا. ومـع كل خطـوة نحـو البحـر تبتعـد سـوريا إلى الخلـف. نتعثـر غالبـا بالصخـور والشـجر والحفر، ومشـينا أكثر مـن سـاعتين حسـبناها دهـورا، وأنـا ذاهـل عـما يجري، وكنـت أحسـب أنني في حلـم وسـأفيق لأجد نفسي في فـراشي مـع لميس والأولاد. لكنـه لم يكـن حلما. قالـوا لنـا اجمعـوا الجـوازات والنقـود ورتبـوا وضعكـم ثـم ذهبـوا لجلـب القـارب. اليـوم، وأنـا في كنـف هـذه المدينـة الغريبـة، ومـن بـين سـاحاتها وكنائسـها وغاباتهـا ومهرجاناتهـا وصفـاء هوائهـا، أسـتطيع سـماع تـردد المـوج في البحـر، وأتحسـس ذلـك الظـلام المخيـم، وتلـك النجـوم البعيـدة وقـد حسبتها في تلـك الليلـة وكأنهـا تضحـك علينـا وعـلى مآسـينا. نحـن شـعب تخـلى عنـه الـرب بـدون شـك، وتركـه يواجـه مصـيره وحـده. هـا أنـا أرى تلـك اللحظـات بوضـوح، الأطفـال وهـم ينفخـون طوافـات الانقـاذ ودواليـب السـباحة، والبعـض الآخـر يهمـون بنفـخ القـارب المطاطـي، والجميـع في حالـة انشـغال وعصبيـة وذهـول وتوقـع الأسـوأ لأنهـا المغامـرة الأولى في العبـور. هـل تصـدق إن قلـت لـك إنـني لا أجيـد السباحة؟ تخيـل شـخصا يركـب البحـر لكنـه لا يجيـد السـباحة. اسـتبعدت مـن ذهنـي تمامـا فكـرة غـرق القـارب. واسـتبعدت فكـرة الاختنـاق تحـت مـوج البحـر بعينـين مفتوحتـين وفـم

يطلب الهواء. استبعدت فكرة الرسو في قاع البحر كي أصبح طعاما للسمك والسرطانات والاخطبوطات. تلك الخيالات غزتني لاحقا بعد أن وصلت إلى الجزيرة.

كنا ستين شخصا، والقارب بطول ستة أمتار فقط، جلست النساء على الأرضية وتوزعنا نحن الرجال على الحافات، وبسبب الثقل وصل الماء إلى حافة القارب، ويمكن لأي موجة عالية أن تغرقنا. تخيل نفسك تواجه الأنواء من دون أي دفاعات ابتكرتها البشرية طوال هذه الملايين من السنين. لا أستطيع أن أصف تلك المشاهد إلا بعار الإنسانية. كان المحرك بطيئا، استدارته صعبة وغير مضبوطة، ووجد السائق صعوبة في التحكم به، وكان البحر هادئا، والموج خفيفا، لكننا أحسسنا بعد نصف ساعة أن الموج راح يعلو كلما تقدمنا صوب اليونان. تطلعت إلى الوجوه ولمست تعابير الموت فيها، بل كان الموت يسكنها، ولم يكن ثمة ضوء، لكننا بعد حين صرنا نرى خطا شاحبا بعيدا من خلال النور الخفيف المنبثق من الآفاق. وأخبرنا العارفون بالبحر أنها جزيرة يونانية، وقد تكون هي نفسها الجزيرة التي نقصدها، إلا أن الماء صار يتدفق إلى الداخل كلما ضربتنا موجة جديدة، وهنا ارتفع الصراخ، واختلط عويل النساء مع صراخ الأطفال، ولم يشك أحد أن ساعة الموت قد دنت. ما نفعنا أن القارب مصنوع من المطاط فكان يتلوى مع الموج بمرونة مما أنقذه من الانقلاب

والغرق، وفي هذه الأثناء تجاوزنا الخط الدولي الفاصل بين تركيا واليونان، وتنادينا لرفع الماء من بطن القارب وتخفيف الحمولة. جاءتني فكرة طارئة هي أن البطولة لا تفيد بمثل هكذا مواقف. فكرت بأسف، وفكرت بهانيبال ونور وليس، وقررت الحفاظ على حياتي بأي ثمن. هم لا يملكون سواي في هذا الكون، ووجودهم في اسطنبول بدون معارف ضاعف من قلقي وتصميمي. مشهد الرعب استمر نصف ساعة، كل ثانية تطول حتى تصير قرنا من السنين، وفجأة أحسسنا أننا نجونا. لم نغرق، هل استجابت السماء لدعاء النساء وصراخ الأطفال؟ ما زالت أصوات الرعب عالقة في رأسي حتى اليوم، وأرجعنا نجاتنا إلى تماسك السائق وشجاعته خاصة وأن له زوجة وأطفالا على القارب مما جعله يتجلد ويصمد في توجيه القارب. تركنا المعدات وهي ستر النجاة، والدواليب، والطوافات، والمحرك، والقارب، على الشاطئ وهي أجزاء يستفيد منها الأهالي في بيعها مرة ثانية للمهربين. ورأينا السوريين يدبون في الطرقات مثل نمل، سوريون في المقاهي، في الاستراحات، بين الصخور، في رؤوس الجبال والمرتفعات، يحملون حقائبهم ويتجهون إلى المجهول، وكأنه يوم القيامة، من دون أن يعرف أحد سر الحساب والمآل. وتحس أن هناك شعوبا هاربة من خرائطها، وكان الأغلبية سوريين، وهناك عراقيون من الموصل والرمادي وتكريت وكركوك وكل

المناطق التي احتلتها داعش. المقاهي مليئة، الفنادق مكتظة، الشوارع مزدحمة، وخيم لاجئين تتناثر في كل مكان. البعض يسبح في البحر، والبعض يفترش الطرقات، فيما عمد آخرون إلى السير في كل الاتجاهات.

كنت أتصل بلميس والأولاد لدى كل محطة أصل إليها، وطمأنتهم بأن طريق النهاية لاح في الأفق ويجب أن لا يقلقوا. تمكنت من إرسال بعض النقود إلى لميس تداينتها من واحد من أصدقائي فبدأت أشعر بالراحة النفسية، وهي المرة الأولى التي أشعر فيها بالراحة منذ بداية طريق الجحيم ذاك. الرحلة من ساحل تركيا وحتى وصولي إلى لوفان استغرقت أربعة أيام، لكنها أيام كأنها امتدت أربعة قرون. قرون من الرعب والخوف واليأس والمغامرة والتعب والبحث عن منفذ إلى الجنة. لقد وصلت بسلام إلى الأيدي الرحيمة.

لم يتوقف سام إلا بعد أن صعدنا الدرج نحو الشقة، خطرت في ذهني بلحظة خاطفة فكرة أنني أتطفل على قصص هذه الكائنات البشرية وأحاسيسها، وأحلامها، وتصوراتها، لقد جئت لزيارة صديقي القديم مرتضى كي أسمع ما مر به في السنوات السابقة، ورؤية لوحاته بعد فراق طويل، وكنت مثل أصدقائي الجميلين، وصلت إلى طريق مسدود لكن بنمط آخر، قادتني إليه الساعات المتعاقبة من القراءة والكتابة، وقررت كسر القوقعة، قوقعة

رأسي المفكر مثل صديقي نصير كي أخرج إلى الهواء الطلق. إلى حكايات البشر وهي تحدث كل لحظة في المدن والبلدان. لوفان قد تكون مدينة بسيطة، محصورة في تلك الدائرة الضيقة التي يرسمها الطريق، إلا أنها منحتني خلال هذه الأيام باقة ملونة من القصص، ودخلت عبرها إلى عش هذه العائلة.

أزحت هذه الأفكار جانبا وعدت أتأمل في ضجيج الأولاد القادم من الغرفة الخلفية المجاورة للمطبخ. كانت اهتمامات الأولاد في الغرفة بسيطة وجديدة: الراب ومغنيه، وأسمع صوت "كاني ويست" ، "دريك" ، "ترافيس سكوت" ، "ليل وين" ، فنالني العجب من دخولهم السريع في هذا العالم؟ هؤلاء المغنون أغلبهم من الزنوج، زنوج حي هارلم، وشوارع نيويورك وواشنطن، والأحياء الفقيرة المشهورة بالمخدرات والجريمة. تجاهلوا الراب العربي خاصة نجمه المشهور "الشاب خالد" ، وسيتجاهلون الكثير من جذورهم في سنواتهم القادمة بكل تأكيد. وكنت من جلستي على الأريكة المواجهة للنوافذ المطلة على الشارع أرمق وجوه الجالسين حولي بفضول، أستقرئها، أسجلها في ذاكرتي. أستقرئ تعابيرها، ورعشاتها، والقصة الكامنة خلف تلك الوجوه والانفعالات، وكيف شاء لهم الظرف الغريب العيش ببيت واحد، برغم أنهم يعتبرون عائلتين لا عائلة واحدة. نبال تمضي إلى المطبخ، تنسل

بحجمها الصغير في الممر المعتم، أو تعود منه حاملة قهوة عربية جديدة، أو صحن فواكه، أو طبقا من البسكوت تضعه على الطاولة. نظراتها تشبه "زرازير البراري"، تلتم، وتنتشر، وتزوغ، وتعانق الفضاء، كما وصفها الشاعر مظفر النواب. لا تستقر طويلا على شيء، وكأن قلقها القديم لا يرغب في مغادرتها برغم أنها وصلت إلى الجنة التي حلمت بها ذات يوم في جزر اليونان.

خفتت الحركة في الشارع تحتنا، واستمر سام يدندن على الغيتار. نغمة عالية في روحي، وأخرى تطير من الشباك نحو فضاء الليل الفلامنكي العتيق عتق هذه المدن المبنية قبل قرون. ضجيج أغاني الراب يأتي عاليا من غرفة الأولاد. أما ميس التي جلست بعيدا عن سام على طرف الأريكة المقابلة لي، فتقول بصوت ناعم واثق وهي تزيح شعرها الأسود عن صفحة وجهها المزين بقرط طويل من الذهب، إن حلمها منذ الطفولة كان زيارة مصر. قرأت معظم روايات نجيب محفوظ في أيام المراهقة. النيل، الاهرامات، حي الحسين، جمال عبد الناصر، توت عنخ آمون، نفر تيتي، وكل ذلك التاريخ العميق في ذهن مراهقة عاشت في حارات دمشق. وكان التغيير جزءا من شخصيتها، وينسجم مع روح المغامرة التي امتلكتها، ولذلك جاء نداء زوجها لها ولابنيها موائما لأحلامها. إلى مصر إذن. في تلك الفترة كان مطار دمشق مغلقا بسبب الثورة المتصاعدة،

قالت بصوت حاسم، وسيماء واثقة من نفسها. اضطرت لميس للتوجه إلى بيروت، ومن هناك إلى القاهرة حيث وجدت زوجها سام بانتظارها، وقد أمضى أشهر هناك ليعدّ لها وللأولاد مكانا للسكن.

خلال تلك الفترة من تحقيق حلمها المصري، ظل التلفزيون محورا للبيت، وكان لديهم انترنيت: مع صديقاتي السوريات كنا بعض الأوقات نشعر وكأننا نعيش في دمشق، تقول وهي تنظر إلى سام. وهذا ما جعلها تحب البيت، تحب الأباجورات الخشب والشالات التي حوّلتها إلى ديكورات جميلة، خلقت جوا غرائبيا في الشقة، شموع عادة ما تضيئها حتى في النهار، وكانت تحب ضوء الشموع وحركتها ورائحتها، تسحرها الخيالات التي تصنعها أثناء نوسانها يمينا وشمالا، لتتجلى على شكل مجسمات للأثاث والأشخاص. صديقاتها يجدن الأغاني في الكومبيوتر على اليوتيوب ثم يبدأن في الرقص، حيث تتحول تلك الجلسات أحيانا إلى حفلات جنونية خاصة حين يشربن بعض الخمور سرا، أو حين يقمن حفلة مشاوي في حديقة البيت أمام شقة جارتها سناء كل أسبوع، ويتقاسمن فيها التكاليف. البيئة الشعبية المصرية أصبحت متحفظة جدا تجاه هذه الأمور. في تلك الشهور تصاعد اهتمام لميس بحياتها الداخلية، وكانت تود أن تقوم بشيء يخصها وحدها، وبدأت بصناعة أعمال يدوية من أشياء بسيطة. لقد

استهوتها هذه الفكرة وتحولت مع ساعات الضجر إلى نوع من الحل. الظروف الحالكة تدفع بعض الأحيان الفرد إلى ابتكار فسحة للتسلية وتأكيد الذات. ليس هناك انسان لا يسعى كي يكون مميزا، بعضهم يعتقد أنه مميز بعمل التبولة، وآخر بصناعة الكيك، وثالث بالعزف، ورابع برسم اللوحات، وخامس بالحلاقة، وسادس بالغناء، وسابع باصطياد النساء، وثامن بحياكة السجاد، وتاسع بشواء السمك، وعاشر برواية النكات، وهكذا. وتلك، كما فكرت، طبيعة انسانية لا يمكن لها أن تختفي ما دام البشر يعيشون على هذه الأرض.

ولميس حسب تقييمي لشخصيتها وقعت على شيء في حياتها غير تربية الأطفال ومهنة الزوجة، ألا وهو صناعة الأشكال الجميلة، والتلوين على الخشب والورق وكؤوس الشراب. تقضي ساعات في تشكيل قطعة قماش على شكل وردة كبيرة، أو تلوّن قطعة خشبية بألوان زاهية. لا توفر أي مسحوق في المطبخ أو الحمام يعطيها الألوان المطلوبة. استخدمت بعض الأحيان أقلام الكحل، وأحمر الشفاه، وصبغات "الفاونديشن" التي تطلي بها وجهها الناعم المتسم بشحوب بسيط. تصنع إطارات صغيرة من أخشاب فائضة تلتقطها أحيانا من الشارع أثناء ما تمضي للتبضع من السوق القريب. لميس كما أستشف من حديثها، وحركاتها، وهواياتها في ترميم الفضاء الضيق المحيط

بجسدها، ترغب في أن تجد لها مكانا في هذه الغابة، تصنع شيئا ما بمعزل عن زوجها وولديها، شيئا خاصا بها. فكرت بأن جناح سام لم يعد يتسع لها، مع وجود تلك الروح المتوثبة المسفوحة من خلال أحلامها.

قطعت لميس حديثها ونهضت من الأريكة وجلبت لي نماذج من أعمالها. حرصت على رزمها في حقائبها من تركيا، حين تم جمع الشمل مع سام ووصلت بها إلى لوفان منسقة، ومغلفة بالنايلون، كأي قطع نفيسة. أشياء لميس لوحات تشبه المنمنمات، تمثل زخارف وأشجارا يانعة، تسبح في هواء نقي. لوحة على شكل هلال مزخرف تتدلى من حافاته الحادة شناشيل وحلق ناعم. ولوحة القمر تشبه حسب خبرتي تمارين الرهبان البوذيين الذين يستخدمونها للتأمل ويطلقون عليها تسمية "المندالا". أنا أيضا أهرب في كثير من الأوقات نحو الخارج للابتعاد عن فانتازيات ذهني المضطرب المشغول بتجربتي المتعددة الطبقات، من السيناريوات التي عودتني عليها الكتابة في التخييل. صارت تلك الفانتازيات الذهنية تبعدني في الفترات الأخيرة من الواقع لذلك أعمد إلى تأمل ورقة ساقطة على الأرض، ومراقبة الطيور وهي تحلق في الفضاء، وسماع ثرثرة البشر الذين ألتقيهم، وتلمّس اللوحات والمشغولات اليدوية، ومداعبة العشب في الحدائق والغابات. وهذا ما لاحظت مرتضى يفعله أيضا أثناء تجوالنا في الغابة المحيطة ببيته.

الانتباه إلى العالم الخارجي يعطيه فسحة راحة من رسم اللوحات. حتى الكاتب يحتاج في حياته إلى الهروب من الخيال إلى الواقع. البشر متشابهون في عمق وجودهم البشري. تأملت أنا كذلك النجوم في الليل وهي تخترق بلمعانها ظلمة السماء آلاف الليالي، وتأملت الحياة من أسطح بيوت وفضاءات صحراوية، ومن أعالي جبال، ومن فوق سفن عابرة للبحار.

خلال وجودي في لوفان مثلا، أعجبتني تسمية "الليل الفلامنكي"، التي نحتها ذهني في لحظة تأمل وكنت أقف في بالكون مرتضى منتصف الليل محدقا بالكنيسة، والسماء المرقشة بالنجوم، والإلتماعات القصية. الليل الفلامنكي كيف خطرت هذه التسمية مثل برق في ذهني؟ هذه التسمية التي وقعت عليها خلال زيارتي القصيرة هذه. راقبت الشروق من بيت مرتضى، والغروب في بيت سام، راقبت الأشياء التي ستزول بعد موتي أثناء ما كنت ماشيا مع مرتضى في الساحات، متتبعين آثار صديقنا المشترك نصير الذي اغتالته مدينته بغداد قبل عقد من السنين على أسفلت أحد شوارعها المهمة. نصير شاهدته في بغداد وهو يمتص الحياة الجديدة التي تكونت ونمت أثناء غربته في مدينة لوفان البعيدة. كان يتجول بين الحين والآخر في شوارع العاصمة مستعيدا تاريخها، في الجمعة يقضي وقته متسكعا في منطقة الشورجة لمراقبة هؤلاء البشر المنشغلين

ببيـع الملابـس والعطـور والأحذيـة والطيـور والسـلاحف والأقفـاص الخشـبية والحديدية المهيـأة لطيـور الحـب والبلابـل والشـحارير وحتـى الأرانـب، والحاجـات البيتيـة التـي وفـدت بكثـرة بعـد الاحتـلال. يمـشي في شـارع الرشـيد مـن سـاحة الميـدان حتـى سـاحة التحريـر متطلعـا في أعمـدة الشـارع المتهالكـة والواجهـات غـير الأنيقـة لتحـولات مرعبـة شـكلت ثغـرة كبـيرة في ذاكرتـه. غـادر المدينـة قبـل أكثـر مـن ثلاثـين سـنة.. ثلاثـين سـنة طالمـا مـرت عـلى تلـك الأزقـة والشـوارع والسـاحات حـروب، ومطـاردات، واغتيـالات، ومهرجانـات شـعبية، ومواكـب لمسـؤولين وزائريـن، وغـارات لطائـرات، وأصـوات لانفجـارات. كان نصـير في تلـك السـنوات، قبـل اغتيالـه، يحـاول امتصـاص كل مـا تقـع عليـه عينـاه أو تلتقطـه حواسـه، بهاجـس خفـي يخـبره بأنـه يقـترب مـن المـوت، وسريعـا سـيودع، لا هـذه المدينـة فقـط، بـل كل المـدن التـي مـر بهـا أو عـاش في أحضانهـا منتظـرا لحظـة العـودة. كنـت وقتهـا أعيـش في شـقة صغـيرة بشـارع فلسـطين. وقـد تسـنم نصـير وظيفـة مستشـار في وزارة الثقافـة العراقيـة. وكنـت التقيـه بـين فـترة وأخـرى لمدة سـنة كاملـة. عرفـت فيـه انسـانا حالمـا. لديـه تلـك المشـاريع السـاعية لتغيـير وجـه البلـد ثقافيـا. تلـك كانـت حصيلتـه مـن المنفـى. لأن الإنسـان هـو رأسـمال البلـد ومـن دون إعـادة بنائـه لا يمكـن إعـادة إعـمار مـا دمرتـه الديكتاتوريـة وحروبهـا المتعاقبـة. اسـتضفته في بيتـي الصغـير مرتـين، وقضينـا

ليـالي حماسـية كان هـو بطـل جلسـاتها بمشـاريعه في بنـاء صـالات سـينما، ومتاحـف للفنانـين، ودور نـشر للترجمـة، واجـراء دورات تثقيفيـة ونـدوات عـما تعانيـه البيئـة العراقيـة مـن أزمـات اجتماعيـة، وسـكانية، وثقافيـة، وروحيـة. لم يذكـر في تلـك الجلسـات أي شيء عـن حياتـه في مدينـة لوفـان، أو حياتـه الشـخصية، وعـادة مـا يتجنـب الحديـث عنهـا. اعتـبر نفسـه صاحـب مـشروع عمـلي للتغيـير. الآن وهنـا، أمـا المـاضي فقد تحول إلى ذكريات تخصه وحده.

باصات المعرفة

في هـذه الليلـة الحميمـة، والمؤلمـة في الوقـت ذاتـه، بـين صـوت الـراب ودندنـة سـام عـلى غيتـاره، وسـعال نبـال العميق ودخانهـا المتواصـل، ومسـامرات الشـابة الغنجـة لميس، تخيلـت بلحظـة بحـران أن نصـيرا يجلـس قـرب سـام، عـلى الأريكـة ويبادلني ابتسامته الناعمة المعروفة عنه في أشد اللحظات.

يمسـك كتابـا سـميكا في يـده اليـسرى، وبدلتـه الأنيقـة توحـي بشـخصه المنضبـط والمنظـم في كل الأوقـات والظروف. ومـن خلـف نظارتـه الطبيـة تشـع عينـاه النافذتـان الذكيتـان، وكأنـه يشـترك معنـا فيـما نقولـه، ونفكـر بـه. وورد إلى خاطـري مشروعـه الغريـب لبنـاء مقـبرة للمثقفـين. كنـت في تلـك السـنة أجلـس معـه في مكتبـه الكائـن في مبنـى وزارة الثقافـة الواقـع في الرصافة.

قـال لي بتلـك الابتسـامة ذاتهـا، لقـد خلـق الروائـي الإسـباني "كارلـوس زافـون" مقـبرة مـن حـروف لا يدخلهـا سـوى عشـاق الفكـر، والعقـل، والخيـال، سـماها مقـبرة الكتـب المنسـية. يجـد فيهـا الزائـر أي كتـاب ممنـوع أو مخطوطـة ضائعـة،

وهي فكرة خيالية لا تظهر إلا في الروايات. لكن ما المانع من تنفيذها على أرض الواقع في أحد بلداننا المشرقية، في العراق على سبيل المثال؟ ليس للكتب هذه المرة، بل للمثقفين الذين ماتوا بعيدا عن بلاد النهرين. رموز كبار للثقافة بأنواعها من مسرح وشعر ورواية وموسيقى وغناء وفكر، لدينا منهم الكثير، هناك مئات من مصابيح الثقافة العراقية غابت، وتوارت في أرض الغربة بعيدا عن الوطن.

شعراء جميلون، روائيون ساحرون استحضروا أزقة البتاويين، وشارع الشيخ عمر، والحيدرخانة، وساحة الميدان، وحانات الباب الشرقي، حتى وهم يعيشون في بلدان بعيدة. مسرحيون كانوا يحلمون بمقولة "أعطني مسرحا أعطك شعبا مثقفا"، ولكنهم لم يفلحوا في مخاطبة أبناء جلدتهم باللغة التي يفهمونها. رسامون صبوا لون الغسق الرافديني في لوحاتهم. مفكرون سهروا الليالي في مراجعة تاريخ دام، وقاس، ومتناقض، مثل تاريخنا وهم يقدمون شهادة عقولهم للمستقبل. مغنون ينثّون السحر من حناجرهم، فتحس بروحك كما لو أنك تجلس في قارب نحيف يجتاز بك متاهات القصب في هور الحمّار بغروب تركت الشمس آثارها بين ثناياه، وآهات بنات البصرة حين تجتاز السفن مياه شط العرب عند الكورنيش، وحزن الماشين في الصحاري والحقول الموحشة. كلهم ماتوا هناك، ونسيناهم. كانوا يسعون إلى خلق وطن من أحلام.

حـول بغـداد، عاصمـة العـالم، وعـلى ضفـاف دجلـة الخالـد، دجلـة الخير التـي حيّـا الشـاعر سـفحها عـن بعـد، يمكـن اختيـار بقعـة تجـاور النهـر، تقـوم الحكومـة العراقيـة ببنـاء صرح عـال يشـبه الـبرج، تسـميه "بـرج الثقافـة". تدفـن رفـات كل "الرمـوز" حـول ذلـك الـبرج باهتـمام اسـتثنائي، لتكـون القطعـة المنتخبـة مقـبرة للمثقفـين عـلى غـرار مقـبرة الكتب المنسية للروائي الاسباني الراحل كارلوس زافون.

والـبرج هـو نصـب شـاهق متفـرد، ينبغـي أن يكـون أعـلى مـن بـرج الاتصـالات في المنصـور، وأعـلى مـن أبـراج القـصر الجمهـوري المنتصـب هـو أيضـاً عـلى ضفـاف دجلـة، في مـا سـميت بالمنطقـة الخضـراء. وفي الليـل تضيئـه مصابيـح تشـع مـن بعيـد، يهتـدي إليهـا كل سـائح، وغريـب، وتائـه، ومتعـب من الحياة.

توفـر الحكومـة، ممثلـة بـوزارة ثقافتهـا، باصـات مجانيـة تنقـل السـواح الراغبـين في زيـارة المقـبرة، حيـث يرافقهـم فيهـا مختصـون بتاريـخ العـراق الثقـافي، منـذ حضـارة سـومر حتـى الألفيـة الثالثـة. عـلى كل قـبر توضـع أهـم منجـزات الراحـل، وصـورة ملونـة لـه، ودفـتر يسـجل الزائـرون فيـه انطباعاتهـم عـن المقـبرة ذات الشـوارع الواسـعة، ومسـاكب الزهـور والتماثيـل، وعـن واحـد مـن الراقديـن في المقـبرة. ولا بـأس أن تصنـع كتيبـات تلقـي الضـوء عـلى الميتـين، ومشـاركاتهم في تلك المسيرة المتواصلة، وعذاباتها، منذ قرن.

كما تنطلق "باصات المعرفة" من نقاط محددة في بغداد، مثل ساحة التحرير وساحة النصر والكرادة وملعب الشعب وحديقة الزوراء، مجانا لمن يرغب في زيارة المقبرة ليطلع على وجوه أبناء بلده ممن تغنت بهم الصحف، والمجلات، والصالات، والمنابر. وغنت بأسمائهم البلاد باعتبارهم ضمير شعب ما زال متماسكا، وملحا لتراب أرض تغطي خارطتها نفحة القداسة. شعب لا يستذكر مبدعيه، ومفكريه، ورواد نهضته، سيجد نفسه عاريا أمام التاريخ والأمم، أليس كذلك؟ وسيرتكن إلى الخرافة، والأساطير، والنعرات الحيوانية التي تجاوزها منطق العقل. ومهمة مثل تلك يمكن أن تتبناها نخبة سياسية، واجتماعية، واقتصادية، ممن يدير البلد في المرحلة الراهنة.

لكن، من شبه المؤكد أن معظم البرلمانيين، والوزراء، والدرجات الخاصة، والوجهاء الخلبيين، لم يسمعوا برموز مثل تلك. وإن سمعوا بهم فهم لم يطّلعوا على منجزهم. وإن اطلعوا على منجزهم فهم يتمنون لهم رقدة أبدية في المقابر الباردة حيث هم. لم لا، كانوا مزعجين لهم أثناء حياتهم، وسيكونون مزعجين لهم بعد الممات، كونهم حاجزا صلدا ضد تمزيق الوطن، وترسيخ الجهل، وبيع التاريخ في سوق النخاسة التي نعيشها.

وعجبت مع نفسي من سخرية الأحداث وتكرارها، فهناك من يهجر بلده مثل لميس ونبال وسام، وهناك من

يعود إليه كحالة نصير. لكن الجميع سيموت أخيرا بدون الوصول إلى الراحة الداخلية، والانسجام مع دوره المتغير كل لحظة. وجدت أنه أمر يدعو للحزن والبكاء.

ومع هذه الغيبة عن الصالون التي استولت على خيالي وحواسي سمعت لميس وهي تتحدث عن نهاية الرحلة المصرية، التي وصفتها بالكئيبة.

- اتصل سام بمن يعرفهم من الأصدقاء المقيمين في تركيا وراح يستفسر منهم عن المدارس، والشقق، ومستوى المعيشة، والعمل، وأخيرا فرص الهروب نحو أوروبا. كان ذلك الموضوع بدأ يستولي على خيالنا ليلا ونهارا.

عاشوا سنة ونصف في مصر، وأوصلتهم ظروف حياتهم إلى القرار النهائي بترك الاهرامات، والنيل بوجهه الرصين، ونفر تيتي الخالدة، وحي الحسين الذي لا ينام، والتوجه إلى تركيا. وقد عملت لميس في الأيام التي سبقت الرحيل جردة لحياتها. خمّنت أنها لا تستطيع البوح بها صراحة لأن ثمة ما يخص سام وعلاقتها المرتبكة به كما لاحظت أنا ذلك في اليومين الأخيرين. لذلك أسمعتنا لميس في نهاية الليل الراقص مثل فراشة في حقل برسيم خلف النوافذ، قصصا عجيبة من قصص الهجرة والمنافي التي تحدث في هذه الأيام. أكيد أن هناك ملايين القصص تجري مثلها في العالم، لكن ما يجعلها فريدة في وقعها علينا

هي أن شخصا من بيننا عايشها، وكان شاهدا عليها.

القصص التي تحكى، وتصبّ في كلمات، لن تنسى أبدا. ربما لهذا السبب لم تنس البشرية قصص ألف ليلة وليلة، والزير سالم، والاخوان غريم، حكايات كانتربري، وملحمة جلجامش.

قالت لنا ليس وهي تحتسي المتّة، وتنظر إليّ كما لو أنها تريد نيل إعجابي بطريقة رواية القصص: أناس لا أعرفهم نادرا ما أفتح لهم سياجي، وخطر في ذهني مقولة سارتر العظيمة "الجحيم هم الآخرون"، وأوشكت أن أضحك على هذا التطابق في الطبيعة البشرية برغم اختلاف اللغات، والأديان، والقارات، والأزمنة. سنة بعد أخرى تحول حبها لسامي إلى ولديها، هذا ما جعلني أفترض شعورها برغم أنها لم تصرح بذلك. في سوريا تنتقي الأشخاص، أما في الغربة فالناس مفروضون على المرء. في الغربة يكتشف الإنسان نفسه، مع مراجعة داخلية، وكانت تبحث عن المكان الآمن.

مصر ساحرة بشكل عام، لكن المجتمع متخلف نسبيا، لا يتقبل الآخر. هناك فقر كبير، هناك فصل واضح بين الأحياء، الفروقات الطبقية واضحة، وكان الحي الفقير يعمل لدى الحي الغني. بوابون وخدم وغبار في الشوارع، وضوضاء مصمّة، والغريب لا يجد موردا للعيش.

لم تنزل الى القاهرة سوى مرة واحدة مع الكلفة المرتفعة والازدحام والفوضى. في تركيا الأمر مختلف، صعوبة اللغة والجو الغريب والهروب نحو الماضي. كان الحصول على بيت في تركيا صعب نتيجة كثرة السوريين، وتكرر رفض تأجير بيت أكثر من مرة. مشاكل السوريين ظهرت إلى العلن خاصة المشاكل الأسرية. وبعد دقائق من السماع والخشوع للموسيقى، وحين عدنا من أحزاننا وانشغالاتنا الموسيقية، أوجعتنا حكايات لميس التي تكاد أن تتشابه مع حكايات الجميع من غرباء مدينة لوفان الدائرية. طلاق، انتحال هوية، إفلاس، خيانات زوجية. وفجأة تقول لنا لميس دق التلفون وأخبرني سام أنه عبر إلى الجزر اليونانية. حدثت المعجزة في حياتها، وأدركت أن غربتها الطويلة قد بدأت. وسوريا تنأى في خيالها، مرزومة مع بيروت والقاهرة وكل ذلك الشرق الملبد بغيوم الحروب. تركها وحيدة مع الطفلين. وتحولت حياتها إلى مراقبة دائمة للتلفون، منتظرة تحولات سام عبر طريقه الطويل، فالرحلة من اليونان إلى بلجيكا تحمل كثيرا من المفاجآت. صار هانيبال ونور يهتمان بالموسيقى ويكرسان أوقاتهما لهذا الحيز الجميل. جاءت الموافقة على لم الشمل بعد ثمانية أشهر. تلك هي رحلتي من الجحيم إلى الجنة، واختتمنا الليلة في بيت سام بتلك الجملة التي قالتها لميس، طلبوا مني البقاء للنوم في البيت لكنني رفضت، وكنت أحلم بالعودة وحيدا

في ليل لوفان متأملا بدهاليز تلك العائلة السورية التي التقيتها قبل أيام قرب تمثال المعرفة.

- إذن نخرج معك إلى المدينة لتغيير الجو، فلوفان جميلة في الليل. اتفقوا على ذلك الرأي، وسرعان ما اجتمعنا كلنا خارج الباب، وتوجهنا إلى قلب المدينة، مرورا بنصب الشهداء المنتصب قرب المحطة.

أمشي أحيانا مع سام لنعود إلى هموم حياته السابقة، والحالية، وما يلاقيه من تعب ويأس فني. فهو يسير نحو هامش الحياة يوما بعد آخر. عدا دراسة اللغة فهو يكاد لا يقوم بشيء يذكر. أصبحت مشلولا، لم أعد أمتلك الدافع لمواصلة الرحلة، رحلة الموسيقى، يقول، فلم يعد لديّ جمهور. هل تصدق أنني بدأت أحنّ إلى شوارع اسطنبول؟ الفنان بلا جمهور يصغي إليه، خشبة ميتة. وحين يتخلف سام عني تحاذيني لميس لتبدأ بأسئلة عن حياتي ككاتب، وكيف أعيش، وهل كنت متزوجا أم عازبا؟ وبعض الأحيان تلحق بنا نبال لنسير ثلاثتنا على الرصيف، بينما يرافق سام الأولاد خلفنا، أو أمامنا، وهم يستعجلون الوصول إلى ساحة الذبابة. هناك حيث تقع روح المدينة ووهجها. وجدنا الشوارع مكتظة بالبشر، والنجوم البعيدة شاحبة بسبب الأضواء المنتشرة فوق التلال والبنايات العالية، وندى الهواء يضخ في الأرواح طاقة على الحركة

والسـهر. وفضّـل الأولاد الدخـول في مهرجـان الألعـاب المنصـوب في طـرف السـاحة فتبعناهـم، وبقينـا حريصـين أن لا نفقـد أثرهـم وهـم يضيعـون بـين ألعـاب صيـد الدببة، وامسـاك البطـات السـابحات بالمغناطيس، أو يتأملـون بشـخص عملاق يلبـس رداء عـلى هيئـة كنـغ كونـغ. كـما صفّـت حـول السـاحة بعـض الكرافانـات التـي تبيـع الطعـام، تتسـلط عليهـا أضـواء مشـعة تحيـل الليـل إلى نهـار. إن أمكنـة مثـل هـذه خلقـت لجيـل هانيبـال ونـور وميّـار وليـس لنـا، فأعمارنـا شـارفت عـلى الانتهاء، ونصف ذكرياتنا تعود إلى الماضي.

لميـس تحـاول اسـتعراض معلوماتهـا معـي حـين نقـف قريبـين. ونبـال تدخّـن بتعابـير شـاحبة يضفـي عليهـا اللـون البرتقـالي سـمة شـمعية، تنظـر إلى النـاس، والألعـاب، والأطفـال، نظـرات غائمـة تطفـو عـلى مشـاعرها الحزينـة. أي كمـن وجـد نفسـه في بسـتان مسـحور. أمـا سـام فـكان منشـغلا بنوتاتـه الموسـيقية، وقلقـه الداخـلي، يشـبه أن يكـون شـخصا ضائعـا بـين الأزمـان. حاذينـا أنـا ونبـال واحـدا مـن الكرافانات تبيـع طعامـا مكسـيكيا يتجمـع حولـه السـواح مـن جميـع الأجنـاس. ولـولا أن نبهتنـي نبـال لذلـك التمثـال الغريـب، المنتصـب جنـب الكرافـان عـلى قاعـدة بلاسـتيكية، لمـا تنبهـت له. وقفنا نتأمله بعمق.

امـرأة ترتـدي ثيابـا مزركشـة بالقـماش الشـفاف، يـبرز فيهـا الأصفـر فاقعـا، والأحمر ينسـاب عـلى جزئها السـفلي، تضع قبعة

مكسيكية نسائية من قماش ملون. تمسك باليد اليسرى غيتارا يستند على قاعدة التمثال بأسنان بارزة، وعينين واسعتين. والغيتار مغطى بقماش قطيفة أبيض اللون مضلع. فكرت بفانتازيا أميركا اللاتينية، ورسوماتها، وأقنعتها، وتماثيلها، لدى الأزتك والمايا، واستغربت حضوره في هذا السوق الواقع في قلب أوروبا. الغريب في التمثال أنه يحيل إلى الموت. وجه المرأة يبرز هيكلا عظميا ينتهي بفكين عاريين أبانا صفيّ الأسنان بشكل مرعب. ومثلما أن الأسنان واضحة ترمز للموت، فالعينان أيضا تحولتا إلى حفرتين واسعتين سوداوين. جذب التمثال انتباهنا أنا ونبال من بين كل الموجودات في المطعم المكسيكي، فتوقفنا أمامه لحظات طويلة. قالت لي نبال: ها هي المرأة تشبهني، أنا مثلها ميتة، هيكل عظمي يعيش في هذه الحياة. وما أثار عجبي أنني تذكرت ذلك الكابوس المرعب الذي رأيته في بيت مرتضى، وها هي نبال تعيده على مسامعي. لم أخبر نبال بحلمي ذاك، لكن أن تعتبر نفسها امرأة ميتة بعث في نفسي كثيرا من التعاطف والألم والتساؤلات حول شخصيتها. يا لأضواء المقاهي المكتظة بالبشر، ورائحة النبيذ والجعّة تسيل في الهواء، وضحكات النساء الثملات، وقهقهة الشباب وهم يمتصون سجائرهم، وثمة طائرات في العتمة الفوقية تتجه إلى المطار القريب، وكل ذلك بدا لعيني كأنه طقس خالد لا يمكن له أن يزول.

"لوفان" تغنّي في رأسي

كانت المدينة تغني في رأسي

نغمة للتلال البعيدة، ونغمة للنجوم الشاحبة فوق رؤوسنا، ونغمة للنساء الضاحكات حول كؤوس البيرة وهن يكشفن عن سيقان بيض، ونغمة للحكايات تروى في البيوت الحزينة، في ليلة يختلط فيها الماضي بالحاضر، وكأنها خارج الأزمنة كلها. تجمعنا في الأخير على دكة تطل على الساحة، وصادف أن جلست نبال جنبي، تحدق في المقاهي المليئة وروادها، وأغلبهم من الجنسيات الأوروبية.

وقالت لي هامسة فجأة:

- بعض من جماعتنا يتذمرون من العنصرية في المدينة، لكنني أرى عكس ذلك. كانوا سببا بنجاتنا من ذلك البركان المدمر، هم ذاتهم من ساعدوني في النفاذ من فم ذلك "السكلوب" اليوناني. الفتيات الإسبانيات، حفيدات الأندلس.
- كيف ذلك، قلت لها، وقد تركت البارحة

حكاية الرحلة معلّقة عند المخيم، وأنا أتشوق لسماع النهاية.

قالت طلبت منها الفتيات الإسبانيات، بنات الأندلس، صورة من صورها الحديثة، فنزلت مع امرأة تتعاطف معها من السوريات المنتظرات جمع الشمل، إلى سالونيك، حيث حصلت على صورة واضحة وناولتها لمارثا، التي أفهمتها الغرض من الصورة. سيحاولن إيجاد شخص يشبهها، يحمل الجنسية الاسبانية، وكانت هذه العملية شائعة في اليونان بين المهربين، إذ يحصلون على جواز سفر يعود لفرد من الاتحاد الأوروبي تشبه صورته صورة اللاجئ المطلوب تهريبه. لكن هذه العملية مع المهربين تتطلب ما يقرب الخمسة آلاف يورو، عدا أنها غير مضمونة النتائج مئة بالمائة. وبرغم أن نبال سلمتهن الصورة ولكنها لم تعلق أملا كبيرا على هذه الطريقة، وظلت تمارس حياتها بشكل طبيعي في المخيم. نحفت من قلة الطعام، ولم تعد تنام بشكل جيد. وتدخن كثيرا في ليالي خيمتها المحشورة وسط خيمة أكبر. حتى أصيبت أكثر من مرة بمرض الحكّة بسبب وساخة المكان، وانعدام الشروط الصحية. وخلال ذلك لم تنقطع الفتيات عن إرسال تحياتهن كلما غبن عن المخيم، وهن عادة ما يغبن أسابيع ثم يعدن.

وبين الرجاء واليأس المستولي على نبال، تمتّنت أكثر علاقتها بهن، سيرينا ومارثا وميش، الفتيات الاسبانيات

النبيلات وقد دخلن في أحلامها بلطفهن، ولباقتهن، وذكائهن. وذات يوم اتصلت الفتيات من إسبانيا وأخبرن نبال أن امرأة قادمة من إسبانيا ستتصل بها، وهي تحمل هوية شخصية لفتاة إسبانية ذات شبه كبير بنبال. طلبن منها رؤية الهوية واعطاء رأي فيما إذا كانت الهوية تشبه نبال أم لا. وهكذا تم الأمر. اتصلت تلك المرأة بعد أيام، وقالت سأنتظرك في ساحة "أرسطو" وسط سالونيك. الهوية لفتاة في الخامسة والعشرين، وعدا فارق العمر بين الصورتين لما أمكن التفريق بينهما إلا للمدقق والمشكك بالأمر. مع ذلك وبسبب فارق العمر لم تقتنع الاسبانيات بالشبه، وأجّلن الموضوع إلى فرصة أخرى، وهي فرصة حدثت بعد عشرة أيام، إذ تم العثور على صورة فتاة تقارب نبال بالعمر وتشبهها بالشكل عدا قصة الشعر المختلفة، وهذه ليست بالمشكلة كما قلن.

في يوم آخر، وبعد وصولهن إلى اليونان، أخذن نبال إلى صالون تجميل، وطلبن من الحلاّقة قصة شعر تشبه قصة الشعر لدى الفتاة الاسبانية صاحبة الهوية. تمت "مكيجة" نبال بدقة نساء محترفات، وأخبرن الحلاقة أن لنبال حفلة عرس لذلك ينبغي إيلاؤها مزيدا من الاهتمام. واستغرق العمل ساعة تقريبا، وخرجت نبال من تحت يديّ الحلاقة مطابقة لصورة الفتاة الاسبانية في الهوية. ومع قليل من أصباغ الوجه تجلت نبال بشكل مشابه ومطابق تقريبا

لصاحبة الهوية. أخبروها أنها سترحل إلى بروكسل يوم الجمعة القادم. فتحت نبال حقيبتها وأخرجت قطعة كلينيكس ملوثة بطلاء الفم:

- بعد خروجنا من صالون الحلاقة جلسنا للراحة في حديقة صغيرة، ولأن ما قامت به الفتيات لي لا ينسى، ولن أنساه طيلة حياتي، طلبت من مارثا قطعة المحرمة التي مسحت بها فمها، وسأظل أحمل هذه القطعة النفيسة معي دائما، ذكرى للتضحية، والنبل، والأخوّة بين البشر.

ورافق هذا المشهد دموع متسارعة على خد نبال تأثرا لاستعادة تلك اللحظات المصيرية. قالت إنهم حجزوا على طيران الساعة الثامنة مساء من مطار سالونيك الصغير. وخلال ذلك لم تخبر نبال أحدا بمخطط هروبها إلى بلجيكا. اتصلت بسام ولميس وأخبرتهما بموعد وصولها إلى مطار "شارل رواه" على أطراف مدينة بروكسل. وكانت نبال تحسب الدقائق القادمة وكأنها جبال ثقيلة تتقدم نحوها، وقبل ساعة من الموعد كن يقفن في باب المطار. ستدخل مارثا وميش مع نبال، وستبقى سيرينا في الخارج لتخبر أصحابها إذا ما حدث طارئ غير محسوب. شددوا على نبال عدم التكلم بالعربية، وستدّعي بأنها خرساء لا تجيد الكلام. فقط بالإشارات. وستقف مارثا أمامها وميش

خلفها حتى وصول صالة الطيران. وصفت الدقائق بالرصاص المطبق على رأسها. ووصفتها بالحد الدقيق الفاصل بين حدثين وحالين، الموت والحياة، النجاة والسقوط.

وهكذا حملن حقائبهن ودخلن المطار. وكانت نبال ترتجف من الخوف، وتحاول استبعاد الصورة والمصير فيما لو تم مسكها بتهمة التزوير. لقد طلبن منها إذا ما حصل ذلك إنكار أي علاقة لها بالفتاتين الإسبانيتين المرافقتين، حرصا على سلامتهما الشخصية. عند نقطة التفتيش تطلعت الموظفة في الهوية مليا ثم أشارت إليها بالعبور. ثانية واحدة فصلت بين حياتين، ووجودين، وعالمين، وهو ما يحصل مرة أو مرتين في حياة أي شخص على هذه الأرض. اتجهوا إلى الشباك الثاني، مارثا في المقدمة ونبال خلفها وميش خلف نبال، وكانت هذه المرحلة هي الأصعب. اسم نبال في الهوية هو نورا، وقد راح الاسم يتردد مثل ناقوس في رأسها خشية أن تنساه إذا ما نطق الشرطي بالاسم. ألغت كلمة نبال من ذاكرتها تماما. أمسكت الموظفة بالهوية. بدأت عبر عينين راقصتين تقارن بين الصورة والشخص الواقف أمامها مزوق الخدين بتسريحة إسبانية أنيقة. نبال تتمزق من الداخل خوفا، لكنها ظلت متماسكة من الخارج. وبعد لحظات أشارت لها بالدخول. قالت لها مارثا ما إن ابتعدن خطوات عن الموظفة: لقد نفذنا، ها

أنك وصلت الجنة فافرحي. وكان هناك غبش في الفضاء. كل شيء دخاني ورجراج.

مضوا مباشرة إلى الطائرة، ونبال مازالت تحت تأثير الصدمة. التحول الجذري في مسيرة حياتها حدث منذ لحظة دخول عتمة الطائرة. دائما ما تشعر نفسها في حلم. ما إن تفتح عينيها حتى تجد نفسها في مخيم موبوء أو جزيرة محاطة بالغيلان والحرائق. لا يمكن أن يكون كل ذلك حقيقة. لا يدرك تلك الأحاسيس إلا من مر بها ذات يوم. النجاة من الغرق مصادفة، أو الخروج من حفرة مليئة بالأفاعي، أو مغادرة بلد على وشك الانهيار. كل المغتربين، والمنفيين، والهاربين، والمطاردين، جربوا تلك المشاعر ذات مرة، كما فكرت وأنا أصغي إلى حكاية نبال، ودموعها العاكسة لأضواء الشوارع والواجهات الزجاجية. ولم تصدق بكل ما جرى إلا حين عانقت أختها لميس في مطار شارل رواه. من المحاولة الأولى؟ شيء لا يصدق تقول لنفسها. وعلى بعد مئات الأميال عن مطار شارل رواه، وفي اليوم الثاني من الوصول إلى بروكسل، انتشر الخبر في مخيم أورو كاسترو مثل نار في هشيم يابس، وأصبح حكاية من حكايات أولئك البشر الذين يحاولون، ويحاولون، حتى الوصول إلى الهدف. ثمة امرأة ثانية تعرفها نبال حاولت سبع عشرة مرة للخروج من اليونان لكنها فشلت، وهي تفكر بالمحاولة مرة أخرى.

حكايـات وحكايـات، وبالونـات الضـوء ترقـص فـوق رؤوس الأطفـال في السـوق، والسـاحة تختتـم مهرجانها بخطى متسـارعة للعـودة إلى الأزقـة الخلفيـة. ليـل آخـر ينتهـي مـن حيـاتي. واسـتطعت أن أصـور مشـاهد ليليـة عـلى تلفـوني النقـال. صـورت الفيلـة البلاستيكية الطائـرة فـوق الدكاكـين، والبنـادق المركونـة عـلى المسـاند، والتمثـال المكسـيكي، تمثـال نبـال كـما وصفتـه في سرّي، ووجـوه النسـاء الثملـة مـن حـلاوة الصيـف، وصـورة الألـوان المنعكسـة عـلى بركـة مـاء تركتهـا الحشـود. لكننـي لم أصـور الحكايـات التـي عشـتها الليلـة، فالكلـمات لا يمكـن تصويرهـا، بـل نقشـتها في ذاكـرتي. وظلـت تلـك الحكايـات تـدق في تلافيـف مخـي أثنـاء مـا كنـت راجعـا إلى البيت. تدق كأنها أجراس كنائس تحتفل بعيد الميلاد.

المدينـة تتعـرى، المدينـة تجربـة مضافـة لخزينـي المعـرفي. كلـما اقتنعـت بوصـول مشـواري إلى حائـط عـال تنفتـح فجـأة ثغـرة يطـل منهـا الضـوء، والحيـاة حركـة تصنـع أحداثهـا. وفي اليـوم التـالي مـن تلـك الليلـة الخياليـة، ليلـة البـوح والمتعـة، وفقـت أن أكـون سـببا لاجتماعنـا في بيـت مرتـضى. وهـذا مـا أشعرني بالسعادة. فنحـن في النهايـة أبنـاء شرق واحـد، وغربـة دائمـة. نحمـل عـلى أكتافنـا صليبـا ثقيـلا لعشريـن سـنة مـن الدمـار. لقـد منحتنـي لوفـان قصصـا رائعـة قـد تكـون مـادة دسـمة للتأمـل والكتابـة. القصـص والحكايـات والأشـخاص تمنـح المدينـة معنـى وهويـة، وإلا فـإن أي مدينـة سـتكون مثـل

غيرها بدون قصصها وحكاياتها. لولا حكايات سام، ونبال، ولميس، ونصير، ومرتضى، لكانت لوفان بالنسبة لي مثلها مثل أي مدينة زرتها ذات يوم، أو عشت في بيوتها، وشوارعها، وساحاتها. وجدت أن ليلتي قد جاءت غنية، وثرية التفاصيل، وقابلة للاستعادة على الورق، فيما وجدت مرتضى نائما بين نسائه الملونات، فالتففت بغطائي ونمت بجوار النافذة، مع شعور بالسلام الروحي والقوة على مواصلة الرحلة. رحلة هذا الوجود المفروض على البشر جميعا.

صباحا ونحن ننتظر زيارة العائلة، قادني مرتضى من طريق غير مألوف. ارتقى بي التلة الواقعة خلف بيته عبر مساحات من الأشجار والمنبسطات العشبية، ثم وقفنا على حافة التلة تحت تاج ضخم لشجرة كستناء برية، وانفرشت لوفان تحت أبصارنا. هناك يخرج الطريق من المدينة عبر الجسر الحديدي ليصل الى العاصمة، وهناك محطة القطارات حيث سكن نصير ذات سنة: في فترة الشباب، قال مرتضى، اعتدنا بعض الأيام على اصطياد السائحات. وهناك برج الاتصالات الذي يضيع شتاء في الضباب. هل تصدق أنني بعض الأحيان لا أرى المدينة لشهر أو شهرين؟ ولأن النهار في بدايته كانت السماء عميقة الزرقة، موحية، طازجة ذات هواء عذب، من تلك النوعية الجاذبة للتأملات الروحية، وعمق الأفكار والمشاعر الناعمة. أظن مرتضى، ونحن

نقف جنبا لجنب تحت أشجار معمرة من السرو، يحمل المشاعر ذاتها. هو أيضا وصل إلى نهاية التجربة. خطر في ذهني أن أسأله عن تلك النهاية، فقلت له مستقصيا:

- تقول إنك تعيش عزلة شبه مطلقة، حتى المدينة لم تعد تتواصل معها، فكيف تشحن خيالك الفني إذن؟
- الطبيعة وعجائبها التي أراها في الغابات حولي، والطيور والحشرات، وتلك الألوان البعيدة المستمدة من الطفولة، في تلك البلدة الصغيرة النائمة وسط الريف، ومن وجوه نساء لوفان.تخيل، حتى في الاحلام لم أكن أتصور وقتها حين كنت ألتقي نصير في بغداد أنني سأقف ذات يوم على تلة تشرف على المدينة لأحدق في الشقة التي قطنها قرب المحطة. طرق الحياة غريبة وملتفّة تصل بين مصيرين التقاؤهما شبه مستحيل. تخيّل.
- حدثني أرجوك عن تلك الفترة من حياته البغدادية.

أخبرته أن نصير انشغل بعد رجوعه من منفاه الأوروبي بمفهومين، الأول ردم الهوة في روحه وسماها الثقب الأسود لمجرة الذاكرة، أي ملء زمن الانقطاع الذي عاشه منذ

ساعة مغادرته للوطن. وجد الهوة واسعة بين ذاكرتين، وهو ما يحصل عادة للمغتربين قسرا، والمبعدين، والمنفيين. والمفهوم الثاني هو تكريس معارفه النظرية، وعلمه في البحث والفلسفة المقارنة، لتغيير الواقع عبر الفعل، والتخطيط، والحركة. نسبيا ردم الهوة الزمنية بنشاط لم ينقطع. عرفت بدون شك أنه سكن مع أمه وأخوته القاطنين خلف الجامعة المستنصرية، قريباً بعض الشيء من المكان الذي اغتالوه فيه على طريق "محمد القاسم" . بسبب انتمائه للحزب الشيوعي، وجدارته الفكرية، وثقافته، وظّف مستشارا لوزير الثقافة، وكان مكتبه دائما ما كان يغص بالمثقفين، والفنانين، والصحافيين. زرته هناك أكثر من مرة. رفض امتيازات المنصب من مرافقين وسيارة خاصة وغير ذلك، واكتفى بأخيه الأصغر سائقا ومرافقا له. ولردم تلك الهوة المكانية كثيرا ما غادر المكتب وتوغل في بغداد، مستعيداً منظر شوارعها ومناطقها الشعبية وتسمياتها الحديثة، متأملا في واجهات عماراتها العتيقة، قارئا آثار الزمن على جسدها. يقف في سوق السمك يحصي أنواعه المجلوبة من الأنهار والأهوار والبحيرات، ثم يجلس في مقهى شعبي يتناول الشاي، ويرمق وجوه الجالسين، وتعابيرهم. يستمع إلى اللهجة الصافية، ونبرات اللغة، والانفعالات المرافقة للحوارات. هناك يتلمس آثار الحروب، والرعب، والزنازين، والإذلال، والنذالة، والفاقة،

والآمال المجهضة طوال عقود من الهزائم.

يتقرّى كل ذلك في أخاديد الوجوه المتعبة، والنظرات الكسيرة، والشعور البيض الشائبة من الأهوال، ولغة الأجساد الدالة على القلق، والشتات، والخوف من المجهول. يضيع في الشوارع الشهيرة كشارع الرشيد، والجمهورية، والنهر، والسعدون، والكفاح. يقارن بين تلك الشوارع ذاتها في ذاكرته وهذه الشوارع البائدة التي يراها. تغير كل شيء يقول لنفسه بحسرة، شابت الأمكنة كما شبنا. يركب في باص يربط بين ساحة النصر وعلاوي الحلة بدون أي هدف، ومن هناك يراقب امتداد نهر دجلة بين الكرخ والرصافة، ويدير بعض الأوقات حوارا مع الركاب في دافع خفي لمعرفة ما يضطرم بأذهانهم حول البلد وأحداثه السياسية، والاقتصادية.

يترجل عند المحطة العالمية المقابلة لجامع "ابن بنيّة" ويرجع ماشيا في بعض الأيام مرورا بحي الشوّاكة، وسوق السمك القريب من فم جسر الشهداء في جانب الكرخ. يقف على قمة الجسر ممسكاً بالسياج، متطلعاً نحو "مدينة الطب" والبيوت العتيقة التي عاصرت الملكية، ويتذكر الحلاج القتيل، متصوف الزمن القديم. يحلّق مع نوارس النهر في سماوات الحلم، والأمل، ويطمح في لحظات فريدة أن يتحول إلى نورس هو أيضاً. أما في الجمعة فقد رافقته مرتين أو أكثر، إلى شارع المتنبي. كان مهووساً بالكتب،

الكتب القديمة المباعة على الأرصفة، يعتبرها سلة المهملات للثقافة، عن طريقها يطل على أسرار البيوت البغدادية، وأفكار مثقفيها وغذائهم الروحي طوال سنوات الجدب الماضية. يحدث أن يلاقي كتبا مهداة إلى مشاهير الكتاب، وطبعات قديمة تعود إلى الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، ونسخا نادرة لم تعد طباعتها مرة أخرى. يشتري كل ما يلفت انتباهه. يتملكه نهم معرفي لا يرتوي، فذلك الثقب الأسود، ثقب الذاكرة، لم يكن ذا قرار. وفي نهاية اليوم يجلس في مقهى "الشابندر" ، بعد أن يكون قد تناول صحنين من "كبّة السراي" في بداية السوق.

وهناك في المقهى العتيق يطلب أركيلة واستكانا من الشاي، ثم يبحر في وجوه الزبائن، والصور القديمة لأهم مشاهد بغداد المعلقة على جدران المقهى. ولا يلبث أن يرتكس ثانية داخل روحه كأي بغدادي عتيق. ولأن للماضي سحراً على الأرواح، دخل مرة إلى مقهى أم كلثوم المطل على شارع الرشيد من جهة الميدان، وغاب في عتمة المقهى، وانزوى قريباً من بيت النار. وكان ذلك في ظهيرة شتائية باردة. كانت أم كلثوم تغني أغنيتها الشهيرة "القلب يعشق كل جميل" ، فأوصى على أركيلة واستكان دارسين، ليتقمص سنوات السبعينيات حين كان من رواد ذلك المقهى. وليتذكر قصص حبه مع فتيات الجامعة في رحلة خيالية نحو الماضي. وحوله تطل من الجدران صور أم كلثوم التي

يعـود تاريـخ بعضهـا إلى أول زيـارة لهـا إلى بغـداد، إضافـة إلى صـور لهـا وهـي شـابة، وأخـرى في خريـف عمرهـا. ولا يعـود مـن سـفره مـع الصـوت الخـلاب إلا عـلى نـبرات مـؤذن جامـع "الحيدرخانـة" السـاحرة وهـو يدعـو إلى صلاة العـصر، ويكون قـد اسـتهلك خمـس اسـتكانات شـاي وحامـض ودارسـين، ورأسـين مـن التبـغ، وسـفح قناطـير مـن الدمـع عـلى عمـر مضى وكأنه انتقال سريع ما بين الميدان وساحة الرصافي.

ذات يـوم أبـدى لي رغبتـه في مرافقتـه للسـهر في واحـد مـن بـارات بغـداد، يقـع مقابـل القـصر الجمهـوري، ليـس بعيـدا عـن تمثـالي "شـهرزاد وشـهريار" القائمـين عـلى كتـف دجلـة في ظلال التوت، والزعرور، وسعف النخيل.

كان البـار متواريـا وراء ممشـى محـاط بالأشـجار، يدخـل إليـه المـرء مـن شـارع أبي نـؤاس. دخلنـا البـاب العريـض ووجدنـا صالـة واسـعة تنتـشر في مسـاحتها طـاولات خشـبية عتيقـة، يجلـس عليهـا أشـخاص متعبـون، منكفئـون عـلى كـؤوس العـرق والبـيرة. وفي الصالـة تنتـشر رائحـة ثقيلـة للكحـول، والمـازات مـن لبلبـي، وخـس، وباقـلاء، وسـلطات. اتخذنـا مجلسـنا قـرب الجـدار المواجـه للبـاب، عـلى يسـارنا مدخـل الحمامـات، وعـلى يميننـا البـار المختبـئ في العتمـة. طلبنا بيرتـين مـن نـوع "هاينكـن" كانتـا فاترتـين، فالكهربـاء مقطوعة كالعـادة، ولا يـضيء المـكان سـوى شـموع موزعـة عـلى الطـاولات، ممـا حـوّل الصالـة إلى نفـق شـبحي، خاصـة مـع

ظلال الماشين أو أجساد الزبائن المتمايلة على طاولاتها. اشتبكنا بمحاورات طويلة عن الفجوة التي تفصل المغترب عن المكان الذي غادره، وشرح لي رؤيته في هذا الجانب. قال إنه قرر أن يقطع السنوات التي قضاها في الخارج، وقد تجاوزت الثلاثين سنة، من سجل عمره، وسيعيش حتى النهاية في البلد مهما حدث، أو مهما سيحدث. ينبغي علينا أن نكفّر عن سنوات البعاد، غادرنا البلد في سنوات الأزمة وكان في أشد الحاجة للمتنورين من أمثالنا. كنت أسمع له فقط دون نقاش، لأننا، تقريبا، شبه متفقين على هذه المقاربة. وخارج البار كانت بغداد تعيش جحيمها، إذ تتناهى إلى أسماعنا أصوات الانفجارات، والطلقات، ومزامير سيارات الإسعاف، تأتي من ليل مخنوق ينيخ بثقله على المدينة. وبرغم ما في الجلسة من خطورة، ومغامرة، لم يغب عن ذهني أنه يعمل مستشاراً لوزير، وهو عنوان كاف للموت، إلا أننا واصلنا الحديث عن مستقبل بغداد، والبلد بصورة عامة. كان الهمس يتصاعد من الجالسين، بعض يغني بعد أن وصل إلى حالة السكر، وبعض تتطاير الزفرات والآهات من قلبه. الجميع يعكس حالة عامة من الرفض، والمقت، لما تعيشه بغداد. ونحن في ذلك الجو الكئيب، المتوتر، وإذا بشخص ضخم يقتحم المكان، بدا عليه السكر الشديد.

وقف في المنتصف من الصالة، وراح يجيل فينا عينين

ناريتين. كانت ملامحه قاسية، لحيته نامية وملابسه غير أنيقة، وكأنه يشبه شخصية من شخصيات رواية "أحدب نوتردام" للكاتب الفرنسي فيكتور هوغو. منظر لم يكن غريبا، على أية حال، في تلك السنوات. وهذا ما جذب إليه أنظار الجالسين، فحلّ الصمت كاملا علينا وسط دهشة عامل البار، ودهشتنا نحن مجتمعين. أول جملة وجهها لنا هي أننا جبناء، وسفلة، جئنا على ظهر دبابة، والبسطال الأميركي يقبع على رؤوسنا، ثم مضى في حديث طويل منفعل، رافقه هز القبضة واستفزاز الجالسين بالإشارات، حتى قال بصوت حاد غاضب: من منكم يعتبر نفسه رجلا فيرد على كلامي؟ من منكم ينكر هذه الحقائق؟ البلد محتل وأنتم تسكرون؟ مما جعل الجميع يصمت. خشينا من إتيان أي حركة مهما كانت بسيطة. واستمر الجو متوترا قاتلا لدقائق، إلى أن جاء صاحب البار وعمّاله، وبدأوا يتوسلون إليه بالخروج، أو الجلوس لتناول مشروب على حساب المحل. لكن الرجل الغريب رفض كل العروض. وسط صمت مطبق، لبث ينظر إلينا بتحد شيطاني لمدة خمس دقائق. ولسبب ما أدار بعدها وجهه وخرج من الباب بغتة كما دخل. غيّبه ليل بغداد المريب. وبقينا أنا ونصير نتبادل النظرات فترة طويلة. عبر عيني نصير رأيت ذلك التناقض التاريخي الذي ترسّب في أرواحنا، التناقض المتمثل بعجزنا عن إسقاط ديكتاتورية

مقرفة، ووقفنا ننتظر مئات آلاف الجنود كي يسقطوها في ساحة مترامية لأنقاض مؤسساتنا، وجيشنا، وأبنيتنا الأثرية، ونفوسنا المجروحة. لمست في نظراته انكسارنا الأبدي وقد عشنا ذلك الدمار. لمست عجزنا سافرا وسط تعابير مكفهرة متأملة.

وبعد أسبوع كتب موضوعا عن العنف في الروح العراقية، نشره في صحيفة محلية. كان المقال عميقا يكشف جذور القسوة، والعنف، والتناقض في روح الفرد. ربط فيه الظاهرة تلك بالظروف الشاذة والمتطرفة التي عاشها البلد طوال عشرات السنين. أما كيف كرّس معارفه لتغيير الواقع فسعى إليه بطرق غريبة، منها نجاحه في عقد ذلك المؤتمر الضخم للمثقفين، والفنانين، والمفكرين، سواء ممن عاشوا في الخارج أو ممن لبثوا في الداخل طوال عهد الديكتاتورية. ظل لمدة شهر مثل نحلة لا تتعب، كل ذلك من أجل تحقيق رؤيته في استعادة روح الثقافة الوطنية الحقيقية المرتبطة بهموم الشعب. انعقدت جلسات المؤتمر في المسرح الوطني وسط بغداد. ندوات عن المسرح، أماس شعرية، حوارات حول الثقافة والسينما والفن التشكيلي، وهكذا لثلاثة أيام كان فيها نصير يتجول بين المدعوين فرحا سعيدا، لأن معظم المشاركين من أصدقائه أو أساتذته، سواء من الداخل أو الخارج. في ذلك المؤتمر طرح فكرة إقامة مقبرة للمثقفين المغتربين، استوحاها من رواية المقبرة

المنسية لكارلوس زافون الإسباني، ومعرض تشكيلي للفنانين المغتربين، وبناء متحف للفن يجمع لوحاتهم التي أنجزوها خلال فترة غيابهم. أنت قد تسلمت صديقي "مرتضى" دعوة حسب ما أعرف، إلا أنك لم تحضر وقتها. وأصدر صحيفة يومية تغطي تلك النشاطات، وطرح فكرة إصدار كتاب عن وقائع المؤتمر وتوصياته من أجل اعتماده كدليل لإعادة بناء الثقافة بأفق وطني.

كل تلك النشاطات، والمقالات التي دأب على نشرها حول ظواهر المجتمع، وآرائه الجريئة بين أصدقائه ومجالسيه، أثارت التوجس منه، وأحاطته بأعداء مجهولين. كانت النخبة الحاكمة في واد آخر. لم تعجب شخصيته المتفائلة النشيطة شريحة واسعة من الحركات المسلحة، والأحزاب الدينية، والعصابات، والمتطرفين الذين نموا مثل الفطر في بيئة العنف تلك. ثم واصل نشاطه ذاك، بالحماس نفسه، حتى يوم مقتله على طريق محمد القاسم.

- كانت سنوات ميتة. همس مرتضى بحزن وهو يمتص سيجارته الايطالية بغضب.
- بعض الأيام كان يطلب من أخيه الخروج به في جولة بين أحياء بغداد البعيدة التي بنيت خلال غيابه كحي العامل، والبيّاع، والمعالف، وأطراف الدورة، وأبي غريب، وغيرها من الأماكن. يجلس إلى عربة بيع الطعام في شارع

من شوارع البتاويين ويشارك البؤساء وجبة من الكباب وسط تطاير الذباب وغبرة الشوارع. أو يتناول الشاي في واحدة من مقاهي الميدان ليستعيد طعم الشاي القديم الذي كان يتذكره حتى وهو يعيش في لوفان. لم يترك دعوة لم يلبها. شارك في مهرجان النجف للقصة القصيرة، وتعرف على الأجيال الشابة من المثقفين العراقيين. زار ضريح علي ابن أبي طالب حيث وقف عند البهو الضخم وراح يتأمل بتلك الأبهة من الزخارف والمرايا والأضواء، لم يكن مؤمنا لكنه أحس بالحاجة إلى إزالة الاغتراب من نفسه مع تلك الأماكن. حضر أمسية شعرية في مقر الحزب الشيوعي وسط بعقوبة لواحد من أصدقائه المغتربين واستمتع بالطريق بين بغداد وبعقوبة، حتى أنه وقف عند الجسر الحديدي دقائق يتأمل بهذه المدينة التي يشقها نهر ديالى، ولم يتذكر منها سوى ذلك الجسر القديم. وقام بزيارة لواحد من أقربائه البعيدين في مدينة الناصرية وكان هدفه ليس الزيارة بذاتها إنما رؤية هذه المدينة العجيبة التي سمع لمطربيها، وقرأ لشعرائها، وضحك على نكات أبنائها.

كنا نمشي ونتكلم. صمتنا لدقائق متوحدين مع أفكارنا وخطواتنا، وكأننا لا نرغب في الخروج من ذكرياتنا المحزنة عن واحد من أعز أصدقائنا. الصديق الذي اغتيل من دون رحمة على الطريق السريع في ظهيرة مغبرة. تجاوزنا الجسر واجتزنا ذلك النهر الصغير المنسرب بين أشجار خفيضة وأعشاب برية، وتوغلنا في قلب المدينة العتيق، وكان مرتضى يشرح لي ملامح المدينة وأبنيتها وذكرياتها. وحين دخلنا شارع المشاة قال لي إنه سيريني القاعة الشهيرة التي عرض فيها لوحاته أول مرة. "حين تسأل الجدار" هو الاسم الغريب لتلك القاعة. تحولت قبل خمس سنوات إلى شبه متجر للأعمال الفنية. وقفنا أمام الواجهة نتأمل في المنحوتات الصغيرة من البرونز خلف الزجاج، والتقطت صورة للواجهة، وجذب نظرنا تمثال غريب يشبه واحدا من تماثيل "جياكوميتي" لكنه بحجم صغير، معنون بالرجل الذي يمشي بين بلدين. وخطر بذهني حالنا نحن. لم نمش بين بلدين فقط، بل بلدان عديدة، وهي التجربة المرعبة التي خاضها سام ونبال في أحدث تجربة لتجسيد هذا المثال الغريب. تمثال يجذب النظر والفكر بآن واحد. رأيت في حركة الرجلين عيون المهاجرين بين الجبال والمدن، وعلى مياه البحار والمحيطات. رأيت أيضا، برغم البعد المأساوي لفكرة جياكوميتي المتغلغلة في البرونز الصلب، فكرة الاندماج بين الأعراق، وتواصل القارات. الهجرة

صارت سمة عصرنا المتسارع الايقاع. قد يكون الرجل المشّاء موضة عصرنا هذا، هناك ملايين الجنود تغزو بلدانا. وملايين المهاجرين يقطعون الصحاري والبلدان للوصول إلى جنة افتراضية، وآلاف تحملهم الحروب على المشي في الجبال والوديان، هربا من مشّائين آخرين مدججين بأنواع الأسلحة. الرجل المشاء فعلا عنوان لهذا القرن، ولهذه الألفية الجديدة. طلبت من مديرة الصالة تصويره فوافقت. كتف الرجل يندفع إلى الأمام، يسبق قدميه في إشارة إلى إصرار عنيد على المضي نحو المجهول. ألا يندفع الجميع نحو المجهول في صحراء هذا الكوكب؟ تمنيت في سنين سابقة لو أنني أتقنت مهنة الفن بدل الكتابة، لأن الكتابة تدفع صاحبها يوما بعد آخر نحو التشاؤم. بعد هذه التجارب التي عشتها، والمعارف التي حصلت عليها، انتبهت إلى أنني صرت أكثر تشاؤما في النظر إلى مصائر البشر على هذه الأرض. بوزايدون سيبتلع الهاربين في أكثر من قارة. والحروب تندلع في بقاع غير متوقعة. كلما استخدمت المجهر في اكتشاف ما أمر به أقع على بؤس الكائن الصغير، المشّاء الهارب على الطرقات دونما هدف. لقد تغير الزمن، هو يسري حتى على الأعمال الفنية فيزيح قليلا من رؤيتنا لقيمتها، قال لي مرتضى ونحن نتجه إلى الجامعة الكاثوليكية. واقترح مرتضى أن ندخل الجامعة للسؤال عن نصير، فوجدت اقتراحه غريبا، وسورياليا.

مضى على موت نصير عقد من السنوات. ما الجدوى في بعث رماده من الأرشيف؟ ولم يثنني تساؤلي عن مرافقة مرتضى. دخلنا من الباب العريض، ووجدنا طاولة يقف عليها رجل كهل بملابس الحراسة. بادره مرتضى بالسؤال عن الاستعلامات فدلنا على كابينة زجاجية فيها فتاة شقراء، استقبلتنا بابتسامة عريضة. قال لها مرتضى نود السؤال عن شخص كان طالبا هنا. سألت عن اسمه وسنة التخرج، وحين سمعت بالسنة وقفت مذهولة فالتاريخ بعيد جدا، حوالي ربع قرن، وقالت مع ابتسامة خجولة إنها لا تملك بيانات عن تلك الفترة، ويفضل طلب رسمي بالأمر، فخرجنا خائبين. وهنا تذكرت ما قاله لي نصير في تلك الليلة البغدادية: لم أقصد أن أكون مغامراً حين مضيت في رحلة العودة التي لم أتخيلها منذ البداية نزهة في عالم الأحلام، ولم يأخذني إليها حماس رومانتيكي. لقد شعرت فقط أنني مدعو لرحلة نحو المجهول، وفي ذلك يكمن سر انجذابي لها. رحلة العودة وضعتني شيئاً فشيئاً إزاء اختيارات صعبة لم أكن أعي دلالاتها أو أقدر أبعادها، وحررتني من الارتباط بمكان محدد على حساب الزمن الخاص للتجربة الذاتية، وأوقفتني بعيداً عن الأفكار المجردة حول التاريخ العام لأكتشف تنوّع التاريخ المحلي وتعقيده والتواءه. وضعتني هذه الرحلة وجهاً لوجه أمام موت جارف، وشيك وعبثي. لا أعني هنا بالطبع أفكاراً أو

أخيلة أو هواجس تستبق حدث الموت الرهيب، بل حقائق ملموسة يمتزج فيها الموت بالحياة ويتلازمان في كل لحظة. وكانت الشمس في الظهيرة والشوارع مزدحمة بالبشر، وقلق مرتضى من أن نتأخر على موعد العائلة، فرجعنا نحو الجسر، في الطرق ذاتها، ثم توجهنا الى محل الباشا. وجدناه مليئا بأخوتنا المغتربين. اشترينا كل ما يلزم لسهرة الليلة التي توقع لها مرتضى أن تكون فريدة، وممتعة.

"لميس" ترقص حزينة

أحسست وكأنني أتقمص هذه المدينة، وربما جاء هذا الإحساس لصغرها وشخصيتها الحميمة، وهو ما تمنحه للمرء بعض المدن والأماكن من غير سبب معروف، ومن خلال ما زودتني به تجربتي في السفر والتجوال. فهناك مدن عذبة وأخرى عدوانية، ممتعة أو جافة كصحراء، لكن أخطر جانب من ذلك التقمص هو الدوران. وجدتني خلال هذه الأيام ألفّ وأدور مثل شوارعها، أدور بين قصص قد لا يربطها رابط لأول وهلة. وجدتني في القاهرة ودمشق واسطنبول وبغداد وأثينا وسالونيك، مع قصص وحكايات نبال وسامي ولميس ونصير ومرتضى، كما لو كانت تلك القصص جزءا مني، تقمصتني هي الأخرى. أحسست وكأنني أعرفها منذ فترة طويلة. شاهدت الغابات وسناجبها المتقافزة بين شجرة وأخرى، وتبادلت أحاديث مبتسرة مع أشخاص من البلد عن جمال الصيف. عبرت ساحاتها بعينين مفتوحتين على كل ما هو مدهش، ورأيت الغروب الفلامنكي الساحر من أطراف

المدينـة، ومـن تلـة تقـع خلـف بيـت مرتـضى. وكان لذلـك الغـروب مـذاق بـصري نـادر. تسقط الشـمس خلف غابـات بعيـدة، يتصاعـد الوهـج الأحمـر، ويتحـول الأفـق الغـربي إلى اللـون البرتقـالي. تنمـو الظـلال على حافـات الأرض، لأشـجار سـامقة، وبنايـات، وهضـاب نصـف دائريـة كـما لـو كانـت تقـود العـين إلى مملكـة الليـل. ومـن نقطـة مـا نائيـة ترفـرف طيـور بجـع أو بـط بـري، تقودهـا إلى مبتغاهـا نجـوم المجـرّة وهـي تلمـع لحظـة بعـد لحظـة بظهـور ضاحـك لم ينقطـع منـذ مليارات السنين.

عشـقت رائحـة البـلاط العتيـق، وتأملـت في زخـارف الواجهـات الأسـطورية عـلى الكنائـس، والبيـوت القديمـة، والمعاهـد الدراسـية والعلميـة، وجذبتنـي القـوارب الراسـية في القنـاة وهـي تنـام حزينـة مـن تعـب السـنين. وسـبحت مـع تلـك الذبابـة المثبتـة عـلى العمـود الشـاهق وسـط السـاحة في سـماء الصيـف. وشـعرت في لحظـات تجـل روحـي يعيشـه الكتـاب والفنانـون والمتأملـون، بأننـي ممتلـئ بالألـوان، والحكايـات، والروائـح، والتواريـخ. في ليلتـي الأخـيرة سـتبقى المدينـة الدائريـة تـروي حكاياتهـا لآخريـن غـيري، لعابريـن تقودهـم المصادفـة إلى محطتهـا ثـم يرحلـون. وسـأجلس وحيـدا في بيـت مـا، لأتأمـل في المـاضي. ليـس المغتربـون فقـط مـن يسـقطون ضحايـا للـماضي بـل الكتّـاب أيضـا، وسـقوطهم عـادة مـا يـأتي أكثـف وأشـد. هـذا هـو القـدر الـذي لا يمكـن

الهروب منه. ثلاثون سنة، وربما أربعون، وأنا أعيش الأجواء ذاتها. هروب من البلد، وصول إلى بلد آخر، لقاءات ليلية، طبخ أطعمة من بلد المنشأ، تذكارات، قصص عودة مأساوية مثل قصة نصير، أو هجرة مثل سام وشلّته. أطفال يولدون في المنفى وينسون لغتهم الأم. أموات، حالمون، تعارف سريع، شوارع تتلاشى وأخرى في ضمير الغيب، ثلاثون سنة من حلم العودة وربما أربعون. وهذه الشعوب، شعوبنا، ما زالت تحلم بالاستقرار والأمان. كم دفعت من الضحايا؟ وكم وأدت من أحلام؟ كم فرّقت علاقات حب وزواج وصداقة؟

تركت عائلة سامي الأولاد في البيت، دلّتهم الكنيسة إلى العنوان، وكانوا مدفوعين بفضول عارم لرؤية بيت الفنان.

استقبلناهم أمام الكنيسة ودخلنا بهم الممر الذي يقود إلى درج يقع في نهايته، وينتهي الدرج بالمدخل. ينفتح الباب إلى ممر آخر قصير يفضي إلى موزع تطل عليه غرف عديدة. الصالون الواسع. غرفتان للنوم. غرفة مخزن. حمام بجواره غرفة صغيرة لا يوجد فيها سوى المرحاض. ثم المطبخ بجوار الصالون، له شباك عريض يطل على الشارع ويواجه الكنيسة. كائنان متناقضان، هكذا أوحت لي ملابس الأختين، لميس بتنورة خمرية ضيقة تصل إلى ركبتيها عليها قميص وردي يبرز عنقها الطويل، وصدرها المندفع إلى

الأمام، فيما ارتدت نبال طقما أسود، قطعة واحدة أظهرها مثل راهبة تعاني من العزلة. لاحظت البرود بين لميس وسام منذ أن وقعت عيناي عليهما. بيت مرتضى اكتظ بنا كما لم يحدث له طوال سنوات.

جلس الجميع في الصالون، وفي البدء كان هناك حرج في الحديث. الأمر الذي اضطرني كي أكون قائد الجلسة. حتى مرتضى شعر بالحرج. يجلس مع امرأتين سوريتين لا يعرفهما. ويعرف عنهما فقط المعلومات التي أوصلتها إليه. لسنوات سابقة ابتعد عن العرب القاطنين في لوفان كونه لا يرغب في رؤية مأساة الغربة تتكرر في وجوه أشخاص آخرين. وقادهم مرتضى إلى جولة في البيت، طبعا لم يعد لبيته أية هوية محددة. يمكن أن يكون بيتا لأي شخص في أصقاع العالم، عدا نخلة باسقة مغروسة في فسقية من الفخّار شاء أن يضعها قرب شباك المطبخ. هي ليست نخلة بلاستيكية إنما نخلة حية لها سعف، وليف، وجذور خضر تميل إلى اللون البني، وارتفاعها يتجاوز المتر تقريبا لكنها خالية من الزنابير، دلالة وجودها لم تلفت نظر أحد من الضيوف عداي أنا. فمرتضى في جوهره لم يستطع التخلص من بقايا تلك القرية المتربة الحاضنة للنخيل التي عاش فيها طفولته: هي ذاكرة، يستعيد ألعاب الطفولة وصيد الحمام من السعف، وينتشي بالأراجيح الطائرة وكانوا يصنعونها بعد الرجوع من المدرسة. النخلة أغنية،

قصة حب، نساء، وطيور مهاجرة تحط بكل شغف بين تيجانها الخضر.

عقب الجولة وزّع فناجين القهوة على الجميع، وخلال ذلك سألته لميس سؤالا مباشرا، كنت أدرك من خلال معرفتي بمرتضى أنه لا يتطرق إلى حياته السابقة: هل أنت أعزب أم متزوج؟ سؤال باغت مرتضى ودفعه كي يدير وجهه نحو الصور المعلقة، ثم احتسى قهوته، ورسم ابتسامته الطفولية على وجهه ولم يلبث أن أجابها ببطء: تزوجت، وطلقت، ولديّ ولد عمره عشرون سنة يعيش مع أمه في بلد مجاور، ثم صمت منهيا أي بادرة تنم عن متعته في استعادة الماضي. فعلا عاش فترة قصيرة في روما وكان متزوجا من امرأة عراقية لكنه، وبعد مجيء الطفل، حصل الطلاق بينهما ومضى كل واحد منهما إلى مصيره. ساد الصمت بعد جواب مرتضى، قطعته لميس بنقل الحديث إلى وجهة أخرى فقالت لمرتضى مع ضحكتها المميزة وتلويحات أصابعها:

- كل ذلك الجمال خرج من تلك الطاولة؟
وكانت تشير إلى طاولة العمل المركونة إلى الجدار، وفوقها تلك اللوحة غير المكتملة.

طاولة من الخشب تتبعثر عليها أصباغ معبأة بقناني زجاجية وبلاستيكية بألوان وأحجام مختلفة. الطاولة بطابقين سطحها الملوث بالأصباغ والسطح الآخر القريب

من الأرض اكتظت عليه علب من البلاستيك. وقد تحولت الأرضية المحيطة بالطاولة إلى بحر متماوج من الزيوت، أصبح بعضها داكنا بسبب القدم. فكرت أنا بعظمة ذلك الكائن البشري الضعيف، لكن العبقري، فعن طريق كومة من السوائل يمكنه أن يصنع الجميل، والخالد، والمؤثر في قلوب المشاهدين جيلا بعد جيل. أجابها مرتضى بشكل ساخر وهو يضع إصبعه على رأسه:

- كلا خرجت من هنا، فدب الضحك بيننا جميعا.

أية جلسة لن تنسى!

سوريون، عراقيون، لوحات مشعة بالألوان، جرس كنيسة يقرع في الجوار، نخلة تقضي حياتها في تربة غريبة، وحوارات بلا سقف تتأمل في ما تمر به هذه الأرض من غرائب، وأحداث، ومصادفات. ثم حدثنا مرتضى عن بيته الدمشقي، وموت الشاعر عبد الحميد المفاجئ، أثناء ما كان يقضي ليلة هناك، حيث تفاجأ ذات يوم باتصال ابنته "هالة" لتخبره بوفاة أبيها. لكن المشكلة كما شرحتها هالة هي عثور الشرطة على نقود في البيت إضافة لجثة الشاعر، شخص يموت في بيت غريب، ومبلغ ضخم من المال، ولوحات فنية، ومالك البيت غير موجود، عدا هذا فهو يحمل الجنسية العراقية. كل تلك الالتباسات اضطرته للسفر إلى دمشق وتوضيح تلك الألغاز للشرطة. موت

عبد الحميد جاء بعد سنة من اندلاع أحداث الثورة. لقد عاش الشاعر عبد الحميد التباس تلك المرحلة بعمق، وقتها صنّف المثقفون إلى صنفين، من هو مع الثورة أو من هو ضدها، ووجد الشاعر أمامه طريقا واحدا لا غير هو السقوط في دوامة الكحول، هروبا من ذلك الخيار. صار يقضي لياليه أمام التلفزيون في بيت مرتضى، حتى لحظة وفاته. كل تلك القصص حدثته بها هالة ابنة الشاعر عبد الحميد بعد زيارته الخاطفة إلى دمشق، وهذا ما دفعه لبيع البيت والرجوع إلى بلجيكا عن طريق لبنان. لم يحدثني مرتضى عن هذه القصة سابقا، واعتبرتها فجيعة أخرى تضاف إلى فجائع هذا الشعب.

كانت الشمس خارج النافذة في كامل تألقها، وبعد استراحة قصيرة من أحزاننا، وحكاياتنا، قررنا الخروج في جولة لرؤية الغابة القريبة، وكان ذلك اقتراحا من مرتضى. أدرنا ظهورنا للكنيسة واتجهنا نحو الغابة، مرتضى يسير جنبا لجنب مع سام ونبال، وأنا أرافق لميس خلفهم على بعد خطوات فقط، وكانت تفتح لي قلبها بتدفق حر. الضوء الفلامنكي الساحر مرة أخرى، يتقافز على ذرى السنط البري، والسرو. والأرانب تمد رقابها من وراء المرتفعات الصغيرة، وكأنها تتساءل عن هذه السحنات الوافدة إلى المكان. مرتضى كان سعيدا بزيارة العائلة إلى مرسمه، وفي المقابل كانت العائلة مبتهجة باللقاء مع فنان

كبير امتدت شهرته إلى أوروبا، فضلا عن البلدان العربية. هناك مشتركات كثيرة، ربما بسبب خبرة مرتضى بدمشق وعلاقاته مع الأوساط الفنية والثقافية، حدثهم عن سبب شراء بيت في شارع العابد، وعن نهارات مقهى الروضة، وأمسيات نادي المحاربين القدماء المشرف على حديقة السبكي. استرجع دمشق قبل أن تنقلب حياتها رأسا على عقب، وكنا منشغلين بالغزلان المتواثبة بين الشجر، والطيور الغريبة المتنقلة من غصن إلى آخر، والسناجب التي تتطافر بين الأغصان العالية كما لو أنها تلقي علينا التحية باعتبارنا ضيوفا على الغابة. مراقبة الطرق الضيقة الموغلة في بحر الخضرة تجربة فذة، الحيوات السرية تدب بين الأوراق والعيدان المقصوفة وهي تصبح طعاما للنمل والحشرات. كل شيء هنا مدهش وبديع.

مال بنا مرتضى إلى ساحة صغيرة تختبئ بين غيضة من أشجار السنط والجوز البري، وبرز ذلك النصب العجيب في سكون المكان. في تلك الساحة انتصب ساق مقطوع جاف لشجرة ضخمة، تلتف على رأسه أغصان رمادية تشبه عشا ضخما لغراب. تحتل وسطها مدفأة تقليدية من الحديد، يستقر عليها إبريق من اللون نفسه. وشرح لنا مرتضى كيف أن هذه المدفأة كانت بطلة لصقيع المدينة في القرون الماضية. هذا قبل وصول الكهرباء. وصاحت لميس بحبور: إنها تشبه المدفأة التي في بيتنا،

اعتدنا أن نشوي عليها الكستناء والبطاطا، والفول السوداني، وكان أبي يجلبه من البياع "كامل" الواقع دكانه في رأس الحارة. ترى ماذا جرى له اليوم وسط نار الحرب؟ وكانت لميس بمزاج رائق، عيناها السوداوان المتواثبتان مثل سنجابين تنظران في كل الاتجاهات، في حين طارت فراشات عاليا نحو الضوء المتساقط من سماء زرقاء. حدثتني لميس عن لحظة لقائها بسامي في دمشق، بعد أن أشرت بشكل غير مباشر إلى فارق العمر بينها وبين زوجها. طفقت تتذكر اللحظة بتفاصيلها، تعابيرها تنم عن مشاعر محايدة. كانت تجلس ذات يوم في كافتيريا المركز الثقافي الروسي مع أصدقائها، تحتفل بعيد ميلادها الثامن عشر، وحين نزل سامي من الدرج بشكله الغريب ذاك، شعره الطويل، حيويته وحركاته الأنيقة، ضحكته الواثقة، شعرت بموجة صاخبة تجرفها نحو شاطئه. وقتها كانت تدرس في معهد لتطوير اللغة الانكليزية، وهو يقع في محلة الفحّامة، وعادة ما تمضي بجولة في شارع الحمرا مع صديقاتها، أو تجلس في المركز الروسي بعد أن تنتهي من المعهد. كانت تلك الأماكن متنفسها الوحيد خارج البيت. بدوره لاحظ وجودها المتكرر، فبدأ ينتبه لها. ذلك الزمن كان المركز الثقافي الروسي بؤرة للنشاطات من أماسي شعرية وقصصية، وفرق رقص روسية، وموسيقى. بدأ يحتك بها شيئا فشيئا، وبدأت الأحاديث تنعقد، وصارا يلتقيان

يوميـا، وزارتـه في المكتـب الـذي كان يحتلـه هـو وطلابـه في الطابـق الثـاني. صـار يهاتفهـا صباحـا، وينسّـقان اللقـاءات المنتظمـة، لكـن سـام كان يخـاف مـن فـرق العمـر. هنـاك عـشرون سنة تفصـل بـين عمريهـا. في مـصر زالـت كثير مـن أوهـام الحـب والمعرفـة الأولى. وفي تركيـا لاحقـا، نتـج عـن الاحتكاك اليومي تباين الأمزجة، والرغبات، والأفكار.

وكنـت أسـتمع لهـا بشـغف، وهـي تتدفـق في وصـف علاقتهـا بسـام تحت مختلف الظروف والأزمـان، واستوقفتني جملـة "أوهـام الحـب الأولى"، وبقيـت أفكـر بهـا أثنـاء جولتنا في الغابة.

هنـا في هـذه القـارة، شـهدت مـا لا يعـد مـن القصـص التـي تـروي تهشّـم السـطوة الذكوريـة بـين الأزواج. الخمـرة الجديـدة لا تصلـح في الـزق القديـم، كـما تقـول الحكمـة البشريـة. ثـم اسـتأنفنا مسـيرنا بقيـادة مرتـضى. وفجـأة بـرزت فسـحة وسـط الأشـجار الكثيفـة، يقـوم عـلى تلـك الفسـحة بيـت فـاره مـن طابقـين، بسـقوف مخروطيـة حمـراء ونوافـذ واسـعة. وأمـام البيـت كـوخ يشـبه المخـزن، امتـدت تحـت سـقفه طاولـة عريضـة تصطـف حولهـا كـراسي مـن الحديـد الصـدئ. أمـام البيـت وقفـت سـيدة ضخمـة أخبرنـا مرتـضى أن اسـمها ماريانـا. هـي ذاتهـا التـي رأيتهـا قبـل أيـام تخـرج مـن بيتـه في المسـاء المتأخـر، وهـي ذاتهـا مـن شـاهدت بعضـا مـن ملامحهـا في لوحاتـه الايروتيكيـة، ولمحتهـا في محـل البضاعـة

المستعملة من خلف الزجاج. وكانت هناك كلبة وقفت تستطلع بنا وتهز ذيلها دون أن تطلق أي صوت. سلمنا عليها من بعيد وكأننا نعرفها جيدا، ودعتنا للدخول إلى البيت بإشارة من يدها. لكن مرتضى اعتذر لها، مشيرا إلينا، نحن الضيوف المرافقين. ولاحظت رجلا صغير الهيئة جالسا أمام كأس كبيرة من البيرة، رفعه بلهفة وشرب نخبنا، وأوضح مرتضى هوية الرجل قائلا: أنه "جو" زوج ماريانا. قبل أكثر من عشرين عاما قال لنا مرتضى احتضنتني هذه العائلة كما لو كنت واحدا منها. أسكنوني في الطابق الأول، وكانت ماريانا تعمل في سوق لبيع الحاجات المستعملة، بينما يعمل جو زوجها في البريد. وكان ذلك قبل تعرفي على نصير. نصير سبقني إلى العيش في لوفان. جاءها لاجئا مثلنا جميعا في ثمانينيات القرن الماضي، وسكن في البيوت التي تخصصها البلدية للطلاب. برغم معارضة الأقارب من أخوة، وأخوات، ومعارف، لسكني مع عائلة ماريانا من منطلق عنصري، أو ربما ريبة بالأجانب وكان عددهم قليلا في لوفان، لكن ماريانا وجو تمسكا بي، طالما لم أحصل على حق الإقامة. يعودان من العمل ويجدان الطعام جاهزا، وكنت أطبخ لهما الأكلات العراقية من رز بسمتي، ولحم خروف، وباذنجان، وكباب، وشوربة عدس. وأجلب لهما خبزا شرقيا من صاحب بقالة سوداني يقع متجره قرب بناية المستشفى القديم. لا أعرف كيف وصل

منذ ذلك الوقت إلى هذه الأصقاع. هذا قبل أن يفتح محل الباشا قرب بيوتنا. هذا البيت تسليتي الوحيدة في أوقات الضجر والوحدة. أزورهما في أي وقت أشاء، خاصة وأن جو تحول إلى مدمن بعد تقاعده، بينما ظلت ماريانا تعمل في المحل المختص ببيع كل شيء.

وفيما كان مرتضى يحدثنا عن ماريانا عند رجوعنا من الفسحة، هبّت نسمات قوية في أعالي الشجر، وبدأت الأوراق ترتجف وتصطفق محدثة هسهسة عالية، فتخيلت حشدا من الأشخاص غير المرئيين يوشوش من السماء، وكان هناك سنجاب يقف على غصن عال ينظر إلينا بغرابة. التقطت الأختان الفطر من عمق الغابة، وثمار الكستناء البري، التي تساقطت بين الورق الرطب، ولاحقتا الجنادب المتقافزة بحبور، وشرع مرتضى يقتطع أغصانا مورقة ريانة من التوت البري المثمر بحبات حمر، وعساليج من الشجر المتسلق اليانع الورق، وقصف أغصانا جافة من شجيرات قديمة، جمع كل ذلك بباقة ضخمة وهو يبتسم. وخاطبنا، نحن المندهشين أمام ما يفعل وقال: هي للمزهرية المركونة جنب النخلة. وبدأت الأشجار تطبق على بيت ماريانا وراءنا حتى اختفت من النظر، أما الغربان الضخمة فبدأت تطلق أصواتها بزعيق عال، وسمعنا من بعيد نباح كلبة العائلة يتردد علوا وانخفاضا كأنه قادم من عالم آخر. ومرتضى فضل العودة في الطريق ذاته، طريق الغابة. توقفنا

عند الكنيسة المقابلة للبيت، وشرح لنا مرتضى تاريخها القديم العائد إلى العصور الوسطى، وأشار إلى جماليات التصميم الفخم، والسقوف المخروطية وتعدد الأوجه فيها، وجمال صوت الجرس وهو يدق دقات موسيقية كل ساعة، ويطرب فجرا على صوته الموسيقي في هدأة الغابات والحقول والحدائق.

- المشكلة أنني وصلت لهذه البلاد متأخرا بالنسبة لموسيقي يحتاج إلى فرقة وجمهور، إنني احسدكما. قال سام.
- العزلة واحدة يا صديقي، أجابه مرتضى، أمامك طريق طويل لتعتاد على الغربة.
- لكنني أختنق، هذه ليست الحياة التي أريدها. وإن تسألني عن الحياة التي أريدها فسوف أقول لك بصراحة إنني لم أعد أعرف.
- ربما أنا المحظوظ أكثر هنا. لا أحتاج سوى إلى كومبيوتر في عملي. الحكايات موجودة في رأسي. والقراء يقطنون في الغيب. في مكان ما، وربما في زمان ما أيضا، قد يكون بعيدا عنا. قلت أنا معقبا على كلام سام.

ولاحظت مجددا ذلك البرود التي تكنه لميس لزوجها، لميس التي رأيت عبر عينيها الأيام القادمة للتمرد والاندماج

في هـذه البيئـة الجديـدة، وكأنهـا تراكـم إصرارهـا الداخـلي في التخـلي كليـة عـن ذلـك المـاضي البعيـد بقصـص حبـه، وخياناتـه، وحيراتـه، وطرقـه المغلقـة. رأيـت في زمّـة شـفتيها إصرارا داخليـا ضخـما للبـدء بحيـاة جديـدة. وتخيلـت مـا ستعيشـه هـذه المرأة في قـادم السنين، ثـم شـغلني مصير لميس وأنـا أزن فـرق العمـر بينهـا وبـين سـام، حتـى ونحـن ندخـل البيـت بضجـة، وأصواتنـا العاليـة تختلـط بترحيـب مرتـضى الحار بنا جميعا.

لاحظـت زوال الحواجـز داخـل البيـت أمـام المرأتـين، وراحتـا تتحـركان فيـه بخفـة الفراشـات. جلبـت نبـال ولميس التبولـة، والكبـة، والمسبّحة، والمتبّـل. ووعدتـا مرتـضى أنهـما سـتعملان الأكل ذاتـه لماريانـا ذات يـوم إن هـو أحـب ذلـك. وكانـت رائحـة السـمكة المشـوية تفـوح مـن فـرن مرتـضى المحشـور في المطبـخ، لقـد جهـز للجلسـة سـمكة شـبوط ضخمـة مـع قنـاني مـن النبيـذ الأحمـر والأبيـض، وبـيرة بلجيكيـة، وعلـب عصـير. مـن جانبـي وقفـت في الشـباك ممسـكا بـكأسي، متأمـلا في الكنيسـة، مفكـرا بيـوم الغـد حـين أفـارق المجتمعـين نحـو مصـير غـير معـروف، وقـد لا أراهـم مـرة أخـرى. تتقاطـع المصائـر كـما فكـرت وأنـا أحـدق بتصاميم الكنيسـة بصـورة غريبـة، مثلـما جـرى لي خـلال هـذه الأيـام السـبعة مـن زيـارة لوفـان، عـبر تمثـال يصـب المـاء، أو نظـرة خاطفـة، أو حـوار عابـر، أو جلسـة غـير مخطـط لهـا في مقهـى.

لذلـك لا شيء يمكـن إهمالـه في هـذه الحيـاة القصـيرة، وهـو المبـدأ ذاتـه الـذي سرت عليـه في مهنـة الكتابـة. ولكـن تلـك المؤثـرات ترهقنـي بعـض الأحيـان، كـون مراقبـة الأشـياء تضعـف الأعصـاب، والعيـون، والآذان، والأحاسيس. لقـد تعاطفت مع قصص هـذه العائلـة منذ تعرفت عليهـم، سـام الراقـص مثـل غيتـار، ونبـال الحزينـة، ولميـس اللعـوب، والأولاد الغائبـون خلـف لهوهـم مـع الأجهـزة وراء المحطـة العتيقـة. لكـن القصـص ينبغـي أن تـروى ذات يـوم، وإلا ستتحول إلى جثث سرعان ما يعصف بها الهواء.

قبـل جلوسـنا إلى الطعـام جلنـا في مرسـم مرتـضى وأكثـر شـخص دهـش مـن هـذا السـيل اللـوني، والتكوينات النسـائية، والحـركات المبتكـرة، هـي لميس. شـعرت بمهنـة الفـن الحقيقيـة لـدى المـرء، وأن الفـن ليـس نـزوة بـل تكريـس لحيـاة كاملـة. كانـت تنظـر بعجـب، وتـردد مـع نفسـها همسـا: أتمنـى لـو كنـت أنـا مـن رسـم هـذه اللوحـات. وحدّثـت مرتـضى بعجـب وتـردد عـن تجاربهـا في الرسـم، التكوينـات والمشـغولات اليدويـة، وطلـب منهـا أن تريـه إياهـا ذات يـوم. أمـا نبـال فوقفت طويـلا أمـام لوحـة بوزايـدون الـذي يلتهـم الهاربـين في لجة البحـر. هـي تعـرف مـاذا يعنـي تسـاقط الأجسـاد في الهـوّة. تعـرف المصادفـات القاتلـة. رأتهـا حـين مزّقـت تلـك السـيارة المسرعـة جسـد الطفلـة في مخيـم آندومينـي اليونـاني. رأتهـا في رعـب الكوابيـس اليوميـة التـي تأبـى مفارقتهـا. في وجـوه

الرجـال الناظريـن إليهـا باعتبارهـا أرنبـا بريـا لذيـذ اللحـم. رأت الموجـة تجتـاز حافـة القـارب، والسـلالم المتحركـة في مطـار سـالونيك وهـي تتقـدم مـن موظفـة الجحيـم ذات السـلطة القاهرة في قرار الموت والحياة.

ومـن جانبـي سـمعت الأصـوات كلهـا، خريـر النهـر المـار مـن تحـت التلـة، وشـدو طيـور الغابـة، وكلبـة ماريانـا. دخلـت في حـوارات ولاحظـت تعابـير عميقـة لنسـاء ورجـال. وتقـدم الليـل نحـو الغـرب. سـنحتفي بالحيـاة، برغـم المصائـب المكلكلـة فـوق رؤوسـنا مثـل جبـال غـير مرئيـة. ينبغـي أن نعيش حتـى النهايـة مجهولـة المـكان. سـنموت ذات يـوم مثلـما يمـوت اليـسروع، وفراشـة حقـل الـورود، والنمـر البنغـالي، والسـمكة المـدورة في عمـق البحـر. سـنموت مثلـما تمـوت الشـمس بعـد مليـارات السـنين. وسـنموت لأننـا جـزء مـن دورة الكون المتعاقبة، ذلك القانون الخالد في هذا الوجود.

شـغلّنا الموسـيقى عـلى أغـاني قديمـة لفـيروز. وتبادلنـا الكـؤوس لكـي نسـتقطر لحظـة خالـدة. وبلباسـها الخمـري المختطـف مـن صحـراء تجاربنـا المـرّة، المهلكـة، نهضـت لميـس مـن مكانهـا ووقفـت بهيئـة راقصـة فلامنكـو، وكانـت ملابسـها تـبرز تفاصيـل وركهـا، وصدرهـا، وجـزءا من فخذهـا الأسـمر، وبـدأت تهـز خصرهـا عـلى إيقـاع أغنيـة راقصـة. وكنـا نحـدق مدهوشـين، مـن هـذه السـيطرة عـلى أعضـاء الجسـد، وتمتعهـا بليونـة فائقـة للخـصر والعجيـزة والثدييـن، حيـث تهزهـا

بإيقاعات خاصة، محترفة، حتى تبدو منفصلة عن الرأس والوسط. أما عيناها فشع بهما سواد عميق كان يرسل شظايا متطايرة لكل مقلة ثملة تحدق بها. ولفت نظري تعابير سام وهو يحاول الانزواء في مقعده من الخجل لتجلي زوجته في رقصها، وحريتها وسط الصالون. وحين نهض مرتضى وشاركها رقصها لمست الانزعاج بوضوح، وربما الغيرة من الموقف، وانكمش أكثر في مقعده مثل أي عجوز يرغب في أن لا يراه الجالسون.

وهنا جاءتني فكرة الحدود بين جسدين، إلى أي درجة يلغي الزواج الحدود الفاصلة بين رجل وأنثى. هما متزوجان لعشرين سنة تقريبا، لكن ليسا احتفظت بمساحة في داخلها لم يقترب منها سام. الجنس لا يكفي لاندماج شخصين. هناك مستويات أخرى منها ما هو ثقافي وروحي وشعوري، وتلعب الروائح وسرعة التنفس والاسترخاء دورا كبيرا في هذا المفهوم. شبّهتنا، نحن الوافدين إلى أوروبا، بالعلاقة بين جسدين. أحيانا، وربما دائما، يستحيل الاندماج الكلي بالمجتمعات التي قدم منها أبناء الشرق. هناك مساحات بعيدة الغور في النفوس المهاجرة يتعذر الوصول إليها. تظل متوارية عن تيار الواقع الجديد. قد يكون لها علاقة بالجينات. نصف ساعة من الرقص. واستراحة قصيرة للاسترخاء والتأمل، ثم اقترحت ليس على مرتضى أن يرسم لها "بورتريه" سريعا ذكرى هذه

"الليلة المجنونة" كما سمتها.

على تلك الطاولة اللونية وقف مرتضى بين ألوانه فيما جلست لميس على كرسي يقع تحت لوحة بوزايدون. وصمتنا نلاحق أصابع الرسام وهي تخربش على ورق أبيض عريض، مثبت على حامل خشبي منصوب قرب الطاولة. أحسسنا وكأننا أمام عملية سحر تجري تحت أبصارنا. هذا هو الفن، فكرت مع نفسي وأنا أمتص الخمرة من كأسي الزجاجية، وأطوف بأجساد الجالسين وتعابيرهم. اندمجت الموسيقى مع اللون، واندمجت الأفكار بالواقع المادي. وكانت أنامل صديقي مرتضى ترقص مع الفرشاة، وعيناه تقتنصان الخلود من جريان الزمن، وبعد اكتمال لوحة لميس أطلقت عليها لوحة "التمرد" ، وحين اكتملت لوحة نبال أطلقت عليها لوحة "الموت" ، بينما سميت لوحة سامي بلوحة "الحنين" ، وقد وضعت تلك الليلة وسط قلبي بكل تفاصيلها، موسيقاها ورقصها، وتعابير وجوهها، وألوانها الخالدة، ثم أغلقت عليها بمفتاح الزمن.

ولكي تكتمل الحكاية، وتنغلق الدائرة مثل المدينة ذاتها، ودّعت الجميع في تلك المحطة، ثم انقطعت عن صديقي مرتضى ثلاث سنين، سافرت خلالها إلى العراق، ولبثت فيه مدفوعا بنزوة وطنية فاشلة راكمت مزيدا من اليأس في روحي. وعشت دافعا داخليا ملحّا لتقمص

رحلة صديقي نصير، في توق محموم لردم الهوّة بين حياتين، علّني أملأ "الثقب الأسود" ، ثقب الذاكرة. وحين احتلت "داعش" عددا من المدن العراقية، وصارت تهدد العاصمة، قررت العودة إلى مستقري القديم، فسكنت في بيت مشترك يسمونه "بيت الأزمات" وهو مأوى لمن غاب فترة طويلة وفقد عنوان سكنه، أو شهد انعطافا حادا في حياته دفعه للخروج من عنوانه القديم مثل المطلقات حديثا، والأزواج الذين طردتهم زوجاتهم من البيت بسبب العنف، أو هجروا بيوتهم بغتة لسبب غير معلوم. حصلت على غرفة تطل على محل للبيتزا يديره رجل تركي، وبينما كنت أستلقي في سريري ذات ليلة، ضجرا ووحيدا وخائفا، بعد أن أطفأت النور وأطبق على روحي الظلام، ارتسمت في خيالي صورة أعرفها، شاهدتها قبل اليوم كثيرا. رجل أصلع يرتدي ملابس ممزقة، يسير في شارع خال من المارة، وسط بيئة رمادية اللون. رجل غامض الملامح، مرتبك الخطى، قميصه الأبيض ممزق، وبنطاله يدل على القدم، وخلفه مساحات رمادية موحشة. يغذ خطاه نحو طريق طويل يخترق المدن والبلدان والبراري، وكأنه بمظهره المتوحد، المرتبك، كائن خارج من مقبرة، إلا أنه يتحول إلى شبح أثناء تقدمه في حياة تشبه المتاهة. كان رجلا يشبهني.

وتلك اللوحة أتذكرها جيدا، لقد رأيتها ذات يوم في مرسم صديقي مرتضى، ويبدو أنها لم تغادر خيالي.

أغنية حزينة تتردد في رأسي، موسيقى الفراغ الروحي وهي تعزف لحضور غير مرئيين. أزحت الغطاء عن جسدي وأمسكت تلفوني، ورحت أقلّب في أرشيفه. ثمة دافع روحي ضاغط كان يوجهني جسدا وروحا. وقع بصري على الصور التي التقطتها في لوفان ذات سنة. الغابة، القناة بقواربها العتيقة، سامي ونبال وليس وساحة الذبابة. قوارب الموت. الأطفال السائرون في متاهات الجزر اليونانية. براميل الموت المتفجرة فوق المدن والحقول، ومحطة لوفان الزجاجية، وذلك القارب العتيق الراسي على مقربة من معمل البيرة. نساء مرتضى المحدقّات في فضاء الزمن، ولوحة الرجل المشرد المعلقة جنب تلك اللوحة غير المكتملة. الليل الفلامنكي المليء بنجوم تتغامز بأضواء قادمة من مجرات على حافة الكون. الجامعة الكاثوليكية التي درس فيها نصير في القرن الماضي وينتصب أمامها ذلك التمثال الضئيل، "تمثال المعرفة" .

وقعت على صور كثيرة غيرها نسيتها في زحمة الأحداث، وهنا جاءت ضحكة مرتضى في خيالي مثل لون أحمر متوهج تدعوني إليها. اتصلت به في الليلة التالية عبر "الماسنجر" ، وكان صوت المطر يطغى على حركة الشارع. لم يتغير شيء في حياتي قال لي، واستذكرنا تلك الأيام القليلة التي جمعتنا في لوفان، وسألته في نهاية المكالمة عن تلك العائلة. أخبرني بصوت محايد يخلو من العاطفة، عن

مصيرهم. فهمت أن الأخت الكبرى توفيت بسرطان الرئة منذ سنة، وقد عانت في أواخر أيامها معاناة لا يحتملها كائن بشري. أما سام فقد عاد إلى شارع الاستقلال في اسطنبول بعد أن انفصل عن زوجته. في حين احتضنت ليس ابن أختها ميّار لتضمه إلى العائلة، وهم ما زالوا يعيشون في البيت ذاته القريب من محطة القطارات.

وعدت مرتضى بزيارة قادمة ما أن تستقيم ظروف سكني، ولكنني لم أستطع النوم حتى طلع الفجر.

وكان الفجر ممتلئا بموجات كونية غريبة، تسللت إلى صدري وملأت روحي باليأس، وفي الوقت نفسه، بالحنين. الحنين إلى أمكنة غامضة ليست لها أسماء.

إيثاكا

وأنت تنطلق إلى إيثاكا
فلتأمل أن تكون رحلتك طويلة
حافلة بالمغامرة، حافلة بالاكتشاف
لا تخف من الليستريجونيات والسيكلوبات
وبوسيدون الغاضب
لن تجد شيئا من ذلك في طريقك
طالما احتفظت بأفكارك سامقة
طالما مست روحك وجسدك الإثارة الرائعة
لن تقابل الليستريجونيات والسيكلوبات
ولا بوسيدون المتوحش
ما لم تحملهم داخل روحك
ما لم تضعهم روحك أمامك
فلتأمل أن تكون رحلتك طويلة
ولعل صباحات الصيف تكون كثيرة
و يا لها من متعة، يا لها من بهجة
لتدخل موانئ تراها للمرة الأولى

ولعلك تتوقف عند محطات التجارة الفينيقية
لتشتري أشياء جميلة
عرق اللؤلؤ والمرجان، العنبر والأبنوس
فوصولك إليها، هو غايتك الأخيرة
لكن لا تتعجل الرحلة أبدا
فالأفضل أن تستمر لأعوام طويلة
حتى لو كان للشيخوخة أن تدركك، وأنت تصل إلى الجزيرة
غنيا بكل ما جنيته في الطريق
دون انتظار أن تمنحك إيثاكا الغنى
لقد منحتك إيثاكا الرحلة الرائعة
فبدونها ما كان لك أن تبدأ الطريق
لكن ليس لديها ما تمنحه لك سوى ذلك
فإذا ما وجدتها فقيرة، فإن إيثاكا لم تخدعك
فبالحكمة العظيمة التي جنيتها، بهذه الخبرة الكبيرة
لا بد أنك ـ بالتأكيد ـ قد أدركت بذلك ما الذي تعنيه إيثاكا.

الشاعر اليوناني قسطنطين كفافيس
ترجمة رفعت سلّام